تفسير سورة الإسراء

آياتها مائة وإحدى عشرة آية ، وهى مكية إلا ثلاث آيات . قوله عز وجل : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف ، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق** ﴾. وقوله : ﴿ **إن ربك أحاط بالناس**﴾ وزاد مقاتل قوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ .

وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة بنى إسرائيل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى[١] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر [٢]. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى عمرو الشيبانى ، قال : صلى بنا عبد الله الفجر ، فقرأ السورتين ، الآخرة منهما بنو إسرائيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا(٣)** ﴾.

قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ هو مصدر سبح . يقال : سبح يسبح تسبيحاً وسبحان ، مثل كفر اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه : التنزيه والبراءة لله من كل نقص . وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه، والتقدير: أنزه الله تنزيها. فوقع سبحان مكان تنزيها ، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء ، واشتمل الصماء. وقيل : هو علم للتسبيح كعثمان للرجل . وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره : أسبح الله سبحان ، ثم نزل منزلة الفعل ، وسد مسده . وقد قدمنا فى قوله : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة:٣٢] طرفاً من الكلام المتعلق بسبحان . والإسراء : قيل : هو سير الليل . يقال : سرى وأسرى . كسقى

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨) وتلادى : يعنى : من قديم ما أخذت من القرآن ، شبههن بتلاد المال ، أى قديمه وأصيله .

(٢) أحمد ٢/ ٦٨ ، ١٢٢ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٠) وقال : « حسن غريب » وفى الدعوات (٣٤٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٨) وفى التفسير (٤٦٤) والحاكم ٢/ ٤٣٤ وسكت عنه ، والذهبى أيضاً .

وأسقى . لغتان. وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله :

حى النضيرة ربة الخدر أسرت إلىَّ ولم تكن تسرى

وقيل : هو سير أول الليل خاصة . وإذا كان الإسراء لا يكون إلا فى الليل ، فلابد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة، فقيل : أراد بقوله : ﴿ **ليلا** ﴾ تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة . ووجه دلالة ﴿ **ليلا** ﴾ على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية ، بخلاف ما إذا قلت : سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً . وقد استدل صاحب الكشاف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة : « من الليل»[١] . وقال الزجاج : معنى ﴿ **أسرى بعبده ليلا** ﴾ سير عبده ، يعنى : محمداً ليلاً. وعلى هذا فيكون معنى أسرى: معنى سير، فيكون للتقييد بالليل فائدة . وقال : ﴿**بعبده** ﴾ ولم يقل : بنبيه أو رسوله ، أو بمحمد تشريفاً له ﷺ . قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه ، لسماه الله سبحانه به فى هذا المقام العظيم ، والحالة العلية :

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزاً فى قبائلها كأن أسماء أضحت بعض أسمائى

﴿ **من المسجد الحرام** ﴾ قال الحسن وقتادة : يعنى : المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن . وقال عامة المفسرين: أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ ، فحملوا المسجد الحرام على مكة، أو الحرام ؛ لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد . ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿ **إلى المسجد الأقصى** ﴾ وهو بيت المقدس. وسمى الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام . ولم يكن حينئذ وراءه مسجد . ثم وصف المسجد الأقصى بقوله : ﴿ **الذى باركنا حوله** ﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين . فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة. وفى ﴿ **باركنا** ﴾ بعد قوله:﴿**أسرى** ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم . ثم ذكر العلة التى أسرى به لأجلها فقال : ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ أى ما أراه الله سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل ﴿ **إنه** ﴾ سبحانه ﴿ **هو السميع** ﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ ﴿ **البصير** ﴾ بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله .

وقد اختلف أهل العلم : هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه ، أو بروحه فقط ؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول . وذهب إلى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن إسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان . وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا : كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح . واستدلوا

(١) الكشاف ٢/ ٦٤٦، ٦٤٧ .

obeikandl.com

على هذا التفصيل بقوله : ﴿ **إلى المسجد الأقصى** ﴾ فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ . فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء ، وقع بذاته لذكره .

والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات . ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآنى وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شىء . ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط ، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدراً . فإن الإنسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد ، بل ما هو محال ، ولا ينكر ذلك أحد . وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله : ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ [الإسراء : ٦٠] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا : هو هذا الإسراء ، فالتصريح الواقع هنا بقوله : ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ والتصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين. فإنه قد يقال لرؤية العين : رؤيا . وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبى ﷺ ركب البراق ؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب ؟ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ؟

وقد اختلف أيضاً فى تاريخ الإسراء ، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . وروى أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام . ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبى ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع . ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء . وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك . وقد اختلفت الرواية عن الزهرى . وممن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة : الزهرى فى رواية عنه . وكذلك الحربى فإنه قال : أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وقال ابن القاسم فى تاريخه : كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً . قال ابن عبد البر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا. وروى عن الزهرى أنه أسرى به بعد [١] مبعثه بسبعة أعوام . وروى عنه أنه قال . كان بعد [٢] مبعثه بخمس سنين. وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

﴿ **وآتينا موسى الكتاب** ﴾ أى التوراة . قيل : والمعنى : كرمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا

(١، ٢) فى المخطوطة : « قبل » ، والصحيح ما أثبتناه .

موسى بالكتاب . ﴿**وجعلناه** ﴾ أى ذلك الكتاب ، وقيل : موسى ﴿ **هدى لبنى إسرائيل** ﴾ يهتدون به ﴿ **أن لا تتخذوا** ﴾ قرأ أبوعمرو بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لئلا يتخذوا ، والمعنى : آتيناه الكتاب لهداية بنى إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿ **من دونى وكيلا** ﴾ . قال الفراء : أى كفيلا بأمورهم . وروى عنه أنه قال : كافياً . وقيل : معناه : أى متوكلون عليه فى أمورهم . وقيل : شريكاً . ومعنى الوكيل فى اللغة : من توكل إليه الأمور .

﴿ **ذرية من حملنا مع نوح** ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء . ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق . ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله : ﴿ **أن لا تتخذوا**﴾ أى لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، كقوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ [آل عمران : ٨٠] . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من فاعل ﴿ **تتخذوا** ﴾ . وقرأ مجاهد بفتح الذال . وقرأ زيد بن ثابت بكسرها . والمراد بالذرية هنا : جميع من فى الأرض ؛ لأنهم من ذرية من كان فى السفينة . وقيل : موسى وقومه من بنى إسرائيل . وهذا هو المناسب ؛ لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص ، والرفع على البدل وعلى الخبر ؛ فإنها كلها راجعة إلى بنى إسرائيل المذكورين . وأما على جعل النصب على أن ﴿ **ذرية** ﴾ هى المفعول الأول لقوله : ﴿ **لا تتخذوا**﴾ . فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم . ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾ أى نوحاً . وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال : أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة (١) . وأخرج البيهقى عن عروة مثله . وأخرج البيهقى أيضاً عن السدى قال : أسرى برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهراً (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **الذى باركنا حوله** ﴾ قال : أنبتنا حوله الشجر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل** ﴾ قال : جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعله رحمة لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ألا تتخذوا من دونى وكيلا** ﴾ قال : شريكاً .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح** ﴾ قال : هو على النداء :

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٥٤ .

(٢) البيهقى ٢/ ٣٥٥ .

يا ذرية من حملنا مع نوح. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **ذرية من حملنامع نوح** ﴾ : « ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد : حام ، وسام ، ويافث ، وكوش ، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق» .

واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطى [١] وغيرهما فى هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء على اختلاف ألفاظها ، وليس فى ذلك كثير فائدة ، فهى معروفة فى موضعها من كتب الحديث. وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، وهو مبحث آخر. والمقصود فى كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز ، وذكر أسباب النزول ، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية . وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة .

﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾** ﴾ .

قوله: ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب** ﴾ أى أعلمنا وأخبرنا ، أو حكمنا وأتممنا . وأصل القضاء : الإحكام للشىء والفراغ منه . وقيل : أوحينا . ويدل عليه قوله : ﴿ **إلى بنى إسرائيل** ﴾ . ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال : قضينا بنى إسرائيل . ولو كان بمعنى حكمنا لقال: على بنى إسرائيل. ولو كان بمعنى أتممنا لقال: لبنى إسرائيل . والمراد بالكتاب : التوراة. ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه. وقيل: المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير : « فى الكتب » . وقرأ عيسى الثقفى: «لتفسدن فى الأرض » بفتح المثناة. ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور ، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا فى نفوسهم . والمراد بالفساد : مخالفة ما شرعه الله لهم فى التوراة . والمراد

---

(١) ابن كثير ٤/ ٢٣٩ ــ ٢٨٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٣٦ ــ ١٤٩ .

بالأرض : أرض الشام وبيت المقدس . وقيل : أرض مصر . واللام فى ﴿ **لتفسدن** ﴾ : جواب قسم محذوف . قال النيسابورى : أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن . وانتصاب ﴿**مرتين** ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه. والمرة الأولى : قتل شعياء أو حبس أرمياء ، أو مخالفة أحكام التوراة، والثانية : قتل يحيى بن زكريا ، والعزم على قتل عيسى ﴿ **ولتعلن علوا كبيرا** ﴾ هذه اللام كاللام التى قبلها ، أى لتستكبرن عن طاعة الله ، ولتستعلن على الناس بالظلم والبغى مجاوزين للحد فى ذلك .

﴿ **فإذا جاء وعد أولاهما** ﴾ أى أولى المرتين المذكورتين ﴿ **بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد** ﴾ أى قوة فى الحروب وبطش عند اللقاء. قيل : هو بختنصر وجنوده. وقيل: جالوت . وقيل : جند من فارس . وقيل: جند من بابل . ﴿ **فجاسوا خلال الديار** ﴾ أى عاثوا وترددوا . يقال : جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى . ذكره ابن جرير والقتيبى . قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار ، هل بقى أحد لم يقتلوه ؟ قال: والجوس طلب الشىء باستقصاء. قال الجوهرى: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أى تخللوها ، كما يجوس الرجل للأخبار ، أى يطلبها . وكذا قال أبو عبيدة . وقال ابن جرير : معنى جاسوا : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفراء : معناه : قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحسان :

وَمِنَّا الذَّى لاقى بسَيْفِ مُحَمَّدٍ فَجاسَ بِهِ الأعْداءَ عُرْضَ العَساكِرِ

وقال قطرب : معناه : نزلوا ، وأنشد قول الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة وأُبنَا بساداتهم موثقينا

وقرأ ابن عباس: « فحاسوا » بالحاء المهملة. قال أبو زيد : الحوس ، والجوس ، والعوس، والهوس: الطوف بالليل. وقيل : الطوف بالليل هو الجوسان محركاً كذا قال أبو عبيدة . وقرئ: « خلل الديار ». ومعناه معنى خلال ، وهو: وسط الديار. ﴿ **وكان** ﴾ ذلك ﴿ **وعدا مفعولا** ﴾ أى كائناً لا محالة .

﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم** ﴾ أى الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك عند توبتهم . قيل : وذلك حين قتل داود جالوت. وقيل: حين قتل بختنصر. ﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين** ﴾ بعد نهب أموالكم وسبى أبنائكم ، حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ **وجعلناكم أكثر نفيرا** ﴾ قال أبو عبيدة : النفير : العدد من الرجال . فالمعنى : أكثر رجالاً من عدوكم . والنفير : من ينفر مع الرجل من عشيرته . يقال : نفير ونافر مثل : قدير وقادر. ويجوز أن يكون النفير جمع : نفر.

﴿ **إن أحسنتم** ﴾ أى أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ، ﴿ **أحسنتم لأنفسكم** ﴾ أى ثواب ذلك عائد إليكم ﴿ **وإن أسأتم** ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب

منكم ، ﴿ **فلها** ﴾ ، أى فعليها . ومثله قول الشاعر :

فخر صريعاً لليدين وللفم

أى على اليدين والفم قال ابن جرير : اللام بمعنى إلى ، أى فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] أى إليها . وقيل : المعنى : فلها الجزاء أو العقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الإساءة . وهذا الخطاب قيل : هو لبنى إسرائيل الملابثين لما ذكر فى هذه الآيات . وقيل : لبنى إسرائيل الكائنين فى زمن محمد ﷺ . ومعناه : إعلامهم ما حل بسلفهم ، فليرتقبوا مثل ذلك . وقيل : هو خطاب لمشركى قريش .

﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ أى حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة. والمرة الآخرة: هى قتلهم يحيى بن زكريا ، كما سبق. وقصة قتله مستوفاة فى الإنجيل ، واسمه فيه : يوحنا ، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله ، واسم الملك : لاخت . قاله ابن قتيبة . وقال ابن جرير : هيردوس . وجواب ﴿**إذا**﴾ محذوف ، تقديره : بعثناهم ، لدلالة جواب «إذا» الأولى عليه . و ﴿ **ليسوؤوا وجوهكم** ﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف ، أى ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة ، وتتبين فى وجوهكم الكآبة. وقيل : المراد بالوجوه : السادة منهم . وقرأ الكسائى : « لنسوء » بالنون ، على أن الضمير لله سبحانه . وقرأ أبى: « لنسوءن » بنون التأكيد. وقرأ أبو بكر، والأعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر : «ليسوء » بالتحتية والإفراد .قال الزجاج : كل شىء كسرته وفتته ، فقد تبرته . والضمير : لله أو الوعد ﴿ **وليدخلوا المسجد** ﴾ معطوف على ﴿ **ليسوؤوا** ﴾. ﴿ **كما دخلوه أول مرة وليتبروا** ﴾ أى يدمروا ويهلكوا . وقال قطرب: يهدموا . ومنه قول الشاعر :

فما الناسُ إلاَّ عَامِلان : فَعَامِلٌ ... يُتَبِّرُ ما يَبْنِى ، وآخر رافِعِ

وقرأ الباقون بالتحتية ، وضم الهمزة ، وإثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا . ﴿ **ما علوا** ﴾ أى ما غلبوا عليه من بلادكم ، أو مدة علوهم . ﴿ **تتبيرا** ﴾ أى تدميرا . ذكر المصدر إزالة للشك ، وتحقيقا للخبر .

﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ يا بنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فى المرة الثانية . ﴿ **وإن عدتم**﴾ للثالثة ﴿**عدنا** ﴾ إلى عقوبتكم . قال أهل السير : ثم إنهم عادوا إلى مالا ينبغى ، وهو تكذيب محمد ﷺ ، وكتمان ماورد من بعثه فى التوراة والإنجيل ، فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدى العرب . فجرى على بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر ما جرى من القتل ، والسبى ، والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وضرب الذلة والمسكنة. ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** ﴾ وهو المحبس ، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول . والمعنى : إنهم محبوسون فى جهنم لا يتخلصون عنها أبداً . قال الجوهرى : حصره يحصره حصراً : ضيق عليه وأحاط به. وقيل : فراشاً ومهاداً . وأراد ــ على هذا ــ بالحصير : الحصير الذى يفرشه الناس .

﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ يعنى : القرآن ، يهدى الناس الطريقة التى هى أقوم من غيرها من الطرق، وهى ملة الإسلام ، فالتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف وهى الطريق. وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله ، والإيمان برسله . وكذا قال الفراء . ﴿ **ويبشر المؤمنين** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : «يبشر » بفتح الياء وضم الشين . وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الشين من التبشير ، أى يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً للمؤمنين . ﴿ **الذين يعملون الصالحات** ﴾ التى أرشد إلى عملها القرآن ﴿ **أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ أى بأن لهم .

﴿ **وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وأحكامها المبينة فى القرآن ﴿ **أعتدنا لهم عذابا أليما** ﴾ وهو عذاب النار . وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير : يخبر ، أى ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة . وقيل : معطوفة على قوله : ﴿ **أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ ويراد بالتبشير : مطلق الإخبار ، أو يكون المراد منه معناه الحقيقى ، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين: الأولى : ما لهم من الثواب . والثانية : ما لأعدائهم من العقاب .

﴿ **ويدع الإنسان بالشر** ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له . ﴿ **دعاءه بالخير** ﴾ أى مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما . فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر ، هلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة . ومثل ذلك : ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير. . .﴾ [يونس:١١] وقد تقدم. وقيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة : هو الكافر يدعو لنفسه بالشر ، وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كدعائه فى طلب المباح . وحذفت الواو من ﴿**ويدع الإنسان** ﴾ فى رسم المصحف ؛ لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق: ١٨] ، و ﴿ يمح الله الباطل ﴾ [الشورى:٢٤] ، و﴿وسوف يؤت الله المؤمنين ﴾ [النساء : ١٤٦] ونحو ذلك . ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ أى مطبوعاً على العجلة . ومن عجلته : أنه : يسأل الشر كما يسأل الخير . وقيل : إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح . والمناسب للسياق هو الأول .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل** ﴾ قال: أعلمناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : أخبرناهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل** ﴾ قضينا عليهم . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على فى قوله: ﴿ **لتفسدن فى الأرض مرتين** ﴾ قال : الأولى : قتل زكريا. والآخرة : قتل يحيى .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية ، قال : كان أول الفساد قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط، ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط ، فأصابوا منهم ، فذلك قوله : ﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم** ﴾ (١) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، وبعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر ، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فجاسوا** ﴾ قال: فمشوا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ﴿ **تتبيرا** ﴾ : تدميراً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ قال : كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ قال : فعادوا ، فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ . فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (٣) . واعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرتين ، وفى تعيين من سلطه الله عليهم ، وفى كيفية الانتقام منهم. ولا يتعلق بذلك كثير فائدة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** ﴾ قال : سجناً . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : معنى حصيرا : جعل الله مأواهم فيها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **حصيرا** ﴾ قال : فراشاً ومهاداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ قال : للتى هى أصوب . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر » بالتخفيف. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير** ﴾ يعنى : قول الإنسان : اللهم العنه واغضب عليه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ قال : ضجراً ، لا صبر له على سراء ولا ضراء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن سلمان الفارسى ، قال : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر ، قال: يا رب أعجل قبل الليل . فذلك قوله: ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ

(١) ابن جرير ١٥/ ١٧ وفى المطبوعة : « فرددنا » .
(٢) ابن جرير ١٥/ ٣٥ .
(٣) عبد الرزاق (٩٨٨٢) وابن جرير ١٥/ ٣٥ .
(٤) ابن أبى شيبة (١٧٧٦٠) وابن جرير ١٥/ ٣٧ .

عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) ﴾ .

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد ، أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين** ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التى تحار فى وصفها الأفهام . ومعنى كونهما آيتين : أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته . وقدم الليل على النهار لكونه الأصل . ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ أى طمسنا نورها . وقد كان القمر كالشمس فى الإنارة والضوء . قيل : ومن آثار المحو السواد الذى يرى فى القمر . وقيل : المراد بمحوها : أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة . وليس المراد : أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك . ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أى جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء . قال أبو عمرو بن العلاء والكسائى : هو من قول العرب : أبصر النهار : إذا صار بحالة يبصر بها . وقيل : مبصرة للناس من قوله : أبصره فبصر . فالأول : وصف لها بحال أهلها ، والثانى : وصف لها بحال نفسها . وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل والآية التى هى النهار كقولهم نفس الشىء وذاته .

﴿ **لتبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ أى لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف فى وجوه المعاش . واللام متعلق بقوله: ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أى جعلناها لتبتغوا فضلاً من ربكم، أى رزقاً، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار. ولم يذكر هنا السكون فى الليل اكتفاء بما قاله فى موضع آخر ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ [يونس: ٦٧].

ثم ذكر مصلحة أخرى فى ذلك الجعل فقال : ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعنى : محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لا بأحدهما فقط كالأول . إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ، ومعرفة الأيام والشهور والسنين . والفرق بين العدد والحساب : أن العدد : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شىء . والحساب : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص . فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها، فذلك هو العدد . وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر ، قد يحصل كل شهر من عدة أيام ، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق، فذلك هو الحساب .

﴿ **وكل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾ أى كل ما تفتقرون إليه فى أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس. وعند ذلك تنزاح العلل ، وتزول الأعذار ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ [الأنفال : ٤٢] . ولهذا قال : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب : الحظ . ويقال له : البخت . فالطائر : ما وقع للشخص فى الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة . كأن طائراً يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ، ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص فى وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص. وقال الأزهرى : الأصل فى هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته والعاصى، فكتب ما علمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة من علمه مطيعاً ، وشقاوة من علمه عاصياً ، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه . وذلك قوله : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ أى ما طار له فى علم الله ، وفى عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس . قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة العنق .

﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا** ﴾ قرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب: « ويخرج » بالمثناة التحتية المفتوحة ، وبالراء المضمومة على معنى : ويخرج له الطائر . و ﴿ **كتابا** ﴾ منصوب على الحال. ويجوز أن يكون المعنى : يخرج له الطائر فيصير كتاباً . وقرأ يحيى بن وثاب: « يُخرِج » بضم الياء وكسر الراء، أى يخرج الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السميفع [1] ، وروى أيضاً عن أبى جعفر : «يُخرج » بضم الياء ، وفتح الراء على البناء للمفعول ، أى ويخرج له الطائر كتابا . وقرأ الباقون :﴿ **ونخرج**﴾ بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه. و﴿**كتابا**﴾ مفعول به. واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى : ﴿**ألزمناه** ﴾. وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر : «يلقاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف . وقرأ الباقون بفتح الياء ، وسكون اللام ، وتخفيف القاف . وإنما قال سبحانه : ﴿**يلقاه منشورا** ﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة .

﴿ **اقرأ كتابك** ﴾ أى نقول له : اقرأ كتابك . أو قائلين له . قيل : يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئا ومن لم يكن قارئا. ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ الباء فى : ﴿ **بنفسك** ﴾ زائدة . و ﴿ **حسيبا** ﴾ تمييز ، أى حاسباً . قال سيبويه : ضريب القداح بمعنى: ضاربها ، وصريم بمعنى : صارم . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى: الكافى . ثم وضع موضع الشهيد، فعدى بـ « على » ، والنفس بمعنى : الشخص . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى: المحاسب ، كالشريك والجليس .

﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه** ﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده

---

(١) فى المطبوعة : « السميقع » والصواب ما أثبتناه

يختصان بفاعلهما، لا يتعديان منه إلى غيره . فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به ، وترك ما نهاه الله عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه. ﴿ **ومن ضل** ﴾ عن طريق الحق، فلم يفعل ما أمر به، ولم يترك ما نهى عنه ﴿ **فإنما يضل عليها** ﴾ أى فإن وبال ضلاله واقع على نفسه ، لا يجاوزها . فكل أحد محاسب عن نفسه ، مجزى بطاعته ، معاقب بمعصيته . ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ والوزر : الإثم . يقال : وزر يزر وزراً ووزرة ، أى إثما ، والجمع أوزار. والوزر: الثقل. ومنه : ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . أى أثقال ذنوبهم . ومعنى الآية : لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى ، حتى تخلص الأخرى عن وزرها، وتؤخذ به الأولى . وقد تقدم مثل هذا فى الأنعام . قال الزجاج فى تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره .

﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهدايته ، والضال بضلاله ، وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره ، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم . والظاهر : أنه لا يعذبهم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل . وبه قالت طائفة من أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا ، لا عذاب الآخرة .

﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا** ﴾ : اختلف المفسرون فى معنى ﴿ **أمرنا** ﴾ على قولين :

الأول : أن المراد به : الأمر الذى هو نقيض النهى . وعلى هذا اختلفوا فى المأمور به . فالأكثر على أنه : الطاعة والخير. وقال فى الكشاف : معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا [(١)] . وأطال الكلام فى تقرير هذا ، وتبعه المقتدون به فى التفسير . وما ذكر هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصانى . فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شىء غير المعصية ، لأن المعصية منافية للأمر ، مناقضة له . فكذلك : أمرته ففسق ، يدل على أن المأمور به شىء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به . فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به ويناقضه .

القول الثانى : أن معنى ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ : أكثرنا فساقها . قال الواحدى : تقول العرب: أمر القوم ، إذا كثروا . وأمرهم الله : إذا أكثرهم .

وقد قرأ أبو عثمان النهدى وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن : « أمَّرنا » بتشديد الميم ، أى جعلناهم أمراء مسلطين . وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حيوة الشامى ويعقوب وخارجة عن نافع ، وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعلى وابن عباس : « آمرنا » بالمد والتخفيف، أى : أكثرنا جبابرتها وأمراءها . قاله الكسائى . وقال أبو عبيدة : « آمرته » بالمد ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٥٤ .

و« أمرته » لغتان بمعنى كثرته . ومنه الحديث : « خير المال مهرة مأمورة »[١] أى كثيرة النتاج والنسل . وكذا قال ابن عزيز . وقرأ الحسن أيضا ويحيى بن يعمر : « أمرنا » بالقصر ، وكسر الميم على معنى فعلنا. ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى : أكثرنا. وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد ، وأنكره الكسائى . وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد . قال فى الصحاح : وقال أبو الحسن : أمر ماله بالكسر ، أى كثر ، وأمر القوم ، أى كثروا . ومنه قول لبيد :

إن يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وَ إنْ أمِرُوا يـومـاً يكن للهـَلاكِ والفـَنَدِ

وقرأ الجمهور : ﴿ **أمرنا** ﴾ من الأمر . ومعناه ما قدمنا فى القول الأول . ومعنى : ﴿**مترفيها** ﴾ : المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش . والمفسرون يقولون فى تفسير المترفين : إنهم الجبارون المتسلطون . والملوك الجائرون . قالوا : وإنما خصوا بالذكر ؛ لأن من عداهم أتباع لهم . ومعنى ﴿ **فسقوا فيها** ﴾ : خرجوا عن الطاعة ، وتمردوا فى كفرهم ، لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش . ﴿ **فحق عليها القول** ﴾ أى ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم. ﴿ **فدمرناها تدميرا** ﴾ أى تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدته وعظم موقعه. وقد قيل فى تأويل ﴿ **أمرنا** ﴾ : بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق ، وهو إدرار النعم عليهم . وقيل أيضاً: إن المراد بـ ﴿ **أردنا أن نهلك قرية** ﴾ أنه قرب إهلاك قرية ، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية ، فقال: ﴿ **وكم أهلكنا من القرون**﴾ أى كثيراً ما أهلكنا منهم ، فـ « كم » مفعول ﴿ **أهلكنا** ﴾ و ﴿ **من القرون** ﴾ بيان لـ « كم » وتمييز له ، أى كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود ، فحل بهم البوار ، ونزل بهم سوط العذاب . وفيه تخويف لكفار مكة . ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال : ﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا** ﴾ . قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به . كقولك : كفاك ، وأكرم به رجلاً وطاب بطعامك طعاما . ولا يقال : قام بأخيك ، وأنت تريد : قام أخوك . وفى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة ، وتخويف شديد لأهل المعصية ؛ لأن العلم التام ، والخبرة الكاملة، والبصيرة النافذة تقتضى إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه ، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك . والمراد بكونه سبحانه ﴿ **خبيرا بصيرا** ﴾ : أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً ، لا تخفى عليه منها خافية.

وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن سعيد المقبرى ؛ أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن السواد الذى فى القمر ، فقال : « كانا شمسين ، قال الله : ﴿ **وجعلنا**

(١) أحمد ٣/ ٤٦٨ والبيهقى ١٠/ ٦٤ وشرح السنة للبغوى ١٠/ ٣٨٧ .

الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴾ فالسواد الذى رأيت هو المحو » [١] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ ، معنى هذا بأطول منه. قال السيوطى: وإسناده واه[٢]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الإنبارى فى المصاحف عن على فى قوله : ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ قال : هو السواد الذى فى القمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ ، قال : منيرة . ﴿ **لتبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ قال : جعل لكم سبحاً طويلاً. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فصلناه** ﴾ ، قال : بيناه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طائر كل إنسان فى عنقه » [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ قال : سعادته وشقاوته ، وما قدر الله له وعليه، فهو لازمه أين كان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أنس فى قوله: ﴿ **طائره** ﴾ قال : كتابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : عمله . ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا** ﴾ قال : هو عمله الذى أحصى عليه ، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل ، فقرأه منشوراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **اقرأ كتابك** ﴾ قال : سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً فى الدنيا. وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن عائشة فى قوله : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين ، فقال : « هم من آبائهم » . ثم سألته بعد ذلك ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . ثم سألته بعدما استحكم الإسلام، فنزلت : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ ، فقال : « هم على الفطرة » ، أو قال : «فى الجنة » . قال السيوطى : وسنده ضعيف [٤] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ سئل ، فقيل له : يارسول الله ، إنا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين . قال : « هم منهم » [٥] . وفى ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل . وقد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم فى المسألة ، فليرجع إليها[٦] .

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٢ .

(٢) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٦٦ .

(٣) أحمد ٣/ ٣٦٠ وابن جرير ١٥/ ٣٩ .

(٤) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٦٨ .

(٥) البخارى فى الجهاد (٣٠١٢ ، ٣٠١٣) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٥/ ٢٦ ، ٢٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٧٢) والترمذى فى السير (١٥٧٠) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦٢٢ ، ٨٦٢٤) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٣٩) . وكلهم عن الصعب بن جثامة .

(٦) ابن كثير ٤/ ٢٨٨ ـ ٢٩٥ .

وأخرج إسحاق بن راهويه وأحمد وابن حبان ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع ؛ أن النبى ﷺ قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى الفترة » ثم قال : « فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار » . قال : «فو الذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً . ومن لم يدخلها ، يسحب إليها » ، وإسناده عند أحمد هكذا : حدثنا على بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع[١]. وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه وأحمد وابن مردويه عن أبى هريرة . وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة، عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة [٢] . وأخرج قاسم بن أصبغ والبزار وأبو يعلى ، وابن عبد البر فى التمهيد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وجعل مكان الأحمق المعتوه [٣]. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والطبرانى وأبو نعيم عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً ، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً » فذكر معناه مطولاً [٤] .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ قال : بطاعة الله ، فعصوا [٥] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب، قال: سمعت ابن عباس يقول فى الآية: ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ بحق فخالفوه ، فحق عليهم بذلك التدمير. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية ، قال : سلطنا شرارنا فعصوا ، فإذا فعلوا ذلك ، أهلكناهم بالعذاب، وهو كقوله : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : ١٢٣]. وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال : كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية : قد أمر بنو فلان [٦] .

---

(١) أحمد ٤/ ٢٤ وابن حبان (٧٣١٣) والطبرانى (٨٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ : « رجال أحمد فى طريق الأسود بن سريع وأبى هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما » .

(٢) أحمد ٤/ ٢٤ وارجع لما قاله الهيثمى فى المجمع فى الحديث السابق فالكلام فى الحديثين معا .

(٣) أبو يعلى (٤٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ : « فيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس ، وبقية رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى ٢٠/ ٨٣ (١٥٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢١٩ ، ٢٢٠ : « فيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخارى وغيره ورمى بالكذب وقال محمد بن المبارك الصورى : كان يتبع السلطان وكان صدوقا ، وبقية رجال الكبير رجال الصحيح » .

(٥) ابن جرير ١٥/ ٤٢ .

(٦) البخارى فى التفسير (٤٧١١) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا
مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم
مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ
كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة : ﴿ **كل إنسان ألزمناه** ﴾ ومن جملة: ﴿ **من اهتدى** ﴾ ، والمراد بالعاجلة : المنفعة العاجلة ،أو الدار العاجلة ، والمعنى : من كان يريد بأعمال البر أوبأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة والفسقة ، والمراؤون ، والمنافقون ﴿ **عجلنا له** ﴾ أى عجلنا لذلك المريد ﴿ **فيها** ﴾ أى فى تلك العاجلة، ثم قيد المعجل بقيدين : الأول : قوله : ﴿ **ما نشاء** ﴾ أى ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها ، لا ما يشاؤه ذلك المريد . ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا مالا ينالون ، ويتمنون مالا يصلون إليه . والقيد الثانى : قوله: ﴿ **لمن نريد** ﴾ أى لمن نريد التعجيل له منهم مااقتضته مشيئتنا . وجملة : ﴿ **لمن نريد** ﴾ بدل من الضمير فى : « له » بإعادة الجار بدل البعض من الكل، لأن الضمير يرجع إلى « من » وهو للعموم.وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة ، كقوله سبحانه : ﴿ ومن [1] كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ [هود:١٥] . وقد قيل : إنه قرئ : « ما يشاء » بالياء التحتية . ولا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذ . وعلى هذه القراءة فقيل : الضمير لله سبحانه ، أى ما يشاؤه الله ، فيكون معناها معنى القراءة بالنون. وفيه بعد لمخالفته لما قبله. وهو ﴿**عجلنا**﴾ وما بعده وهو ﴿ **لمن نريد**﴾ . وقيل : الضمير راجع إلى ﴿**من**﴾ فى قوله : ﴿ **من كان يريد** ﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله : ﴿**لمن نريد** ﴾ أى عجلنا له ما يشاؤه ، لكن بحسب إرادتنا ، فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد الله له ذلك .

ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم . ولهذا قال: ﴿ **ثم جعلنا له جهنم** ﴾ أى جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿ **يصلاها** ﴾ فى محل نصب

---

(١) فى المطبوعة : « من » بدون واو العطف .

obeikandl.com

على الحال ، أى يدخلها ﴿ **مذموما مدحورا** ﴾ أى مطروداً من رحمة الله ، مبعداً عنها ، فهذه عقوبته فى الآخرة ، مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له . فأين حال هذا الشقى من حال المؤمن التقى ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع ، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة ، منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال : ﴿ **ومن أراد الآخرة** ﴾ أى أراد بأعماله الدار الآخرة ، ﴿ **وسعى لها سعيها** ﴾ أى السعى الحقيق بها اللائق بطالبها ، وهو الإتيان بما أمر به ، وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب،وكان الإتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع ولا هوى ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ بالله إيماناً صحيحاً ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ [المائدة : ٢٧] . والجملة فى محل نصب على الحال . والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها ، وخبره : ﴿ **كان سعيهم مشكورا** ﴾ عند الله ، أى مقبولاً غير مردود . وقيل : مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة . فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكوراً أموراً ثلاثة : الأول : إرادة الآخرة . الثانى : أن يسعى لها السعى الذى يحق لها . والثالث: أن يكون مؤمناً .

ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال :﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾ التنوين فى « كلاً » عوض عن المضاف إليه ، والتقدير : كل واحد من الفريقين نمد ، أى نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ، نرزق المؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة وأهل المعصية ، لا تؤثر معصية العاصى فى قطع رزقه ، وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا . وما أنعم به فى الأولى والأخرى على من يريد الآخرة . وفى قوله : ﴿ **من عطاء ربك** ﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل ، وهو متعلق بـ ﴿ **نمد** ﴾ ، ﴿ **وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾، أى: ممنوعا . يقال : حظره يحظره حظراً : منعه. وكل ما حال بينك وبين شىء ، فقد حظره عليك. و﴿**هؤلاء** ﴾ بدل من «كلاً » و﴿ **هؤلاء** ﴾ معطوف على البدل. قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أنه يعطى المسلم والكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال : ﴿ **هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾.

﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ . ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار. وهذه الجملة مقررة لما مر من الإمداد ، وموضحة له . والمعنى : انظر كيف فضلنا فى العطايا العاجلة بعض العباد على بعض. فمن غنى وفقير، وقوى وضعيف، وصحيح ومريض ، وعاقل وأحمق ،وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها. ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل فى درجات الآخرة إلى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا . وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار . فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . وقيل: المراد : أن المؤمنين يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين . وحاصل المعنى : أن التفاضل فى الآخرة

ودرجاتها فوق التفاضل فى الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله : ﴿ **وسعى لها سعيها وهو مؤمن** ﴾ أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذى هو التوحيد ، فقال : ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر** ﴾ ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد به: أمته ، تهييجاً وإلهاباً، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه . وقيل : هو على إضمار القول . والتقدير : قل لكل مكلف: لا تجعل . وانتصاب ﴿**تقعد**﴾ على جواب النهى ، والتقدير : لا يكن منك جعل فقعود . ومعنى ﴿ **تقعد** ﴾ : تصير ، من قولهم : شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة . وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام . وقيل : هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعى فيه إنما يتأتى بالقيام ، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب . وقيل : إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه ، فالقعود على هذا حقيقة . وانتصاب ﴿ **مذموما مخذولا** ﴾ على خبرية تقعد أو على الحال ، أى فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحى عباده ، والخذلان لك منه سبحانه أو حال كونك جامعا بين الأمرين .

ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد ، أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال : ﴿**وقضى ربك** ﴾ أى أمر أمراً جزماً ، وحكماً قطعاً وحتماً سبرماً ﴿ **أن لا تعبدوا** ﴾ أى بأن لا تعبدوا ، فتكون « أن » ناصبة ، ويجوز أن تكون مفسرة، و « لا » نهى . وقرئ : « ووصى ربك » أى وصى عباده بعبادته وحده ، ثم أردفه بالأمر ببر الوالدين ، فقال : ﴿**وبالوالدين إحسانا** ﴾ أى وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، أو وأحسنوا بهما إحسانا ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿**بالوالدين** ﴾ بـ ﴿ **إحسانا** ﴾ لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به . قيل : ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولد بينهما ، وفى جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى . وهكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره ، فقال : ﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾ [لقمان : ١٤] .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر، لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها ، فقال: ﴿**إما يبلغن عندك الكبرأحدهما أو كلاهما** ﴾ : « إما » مركبة من « إن » الشرطية و « ما » الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير ، كأنه قيل : إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة . قال النحويون : إن الشرط يشبه النهى من حيث الجزم وعدم الثبوت. فلهذا صح دخول النون المؤكدة عليه . وقرأ حمزة والكسائى : « يبلغان » . قال الفراء: ثنى لأن الوالدين قد ذكرا قبله ، فصار الفعل على عددهما . ثم قال : ﴿ **أحدهما أو كلاهما** ﴾ على الاستئناف . وأما على قراءة : ﴿ **يبلغن** ﴾ فأحدهما فاعل بالاستقلال . وقوله : ﴿ **أو كلاهما** ﴾ فاعل أيضاً ، لكن لا بالاستقلال ، بل بتبعية العطف ، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة « يبلغان » بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين فى الفعل . ويكون ﴿**كلاهما** ﴾ عطفاً

على البدل . ولا يصح جعل ﴿ **كلاهما** ﴾ تأكيداً للضمير ، لاستلزام العطف المشاركة ومعنى ﴿**عندك** ﴾ : فى كنفك وكفالتك . وتوحيد الضمير فى ﴿ **عندك** ﴾ و ﴿ **لا تقل** ﴾ وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهى ، ومأمور بما فيه الأمر . ومعنى : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾ : لا تقل لواحد منهما فى حالتى الاجتماع والانفراد . وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

وفى ﴿ **أف** ﴾ لغات : ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء ، وبالتنوين وعدمه ، وبكسر الهمز . والفاء بلا تنوين. وأفى ممالا . وأفه بالهاء . قال الفراء : تقول العرب : فلان يتأفف من ريح وجدها . أى يقول: أف أف . وقال الأصمعى: الأف : وسخ الأذن. والثف : وسخ الأظفار . يقال ذلك عند استقذار الشىء . ثم كثر حتى استعملوه فى كل ما يتأذون به . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أن الأفف : الضجر . وقال القتيبى : أصله : أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه ، نفخ فيه ليزيله . فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل : أف . ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم . وقال الزجاج : معناه : النتن . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأف : وسخ بين الأظفار . والثف : قلامتها . والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال ، أو صوت ينبئ عن ذلك . فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما . وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر فى الأصول .

﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ النهر : الزجر والغلظة ، يقال : نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما . ﴿ **وقل لهما** ﴾ بدل التأفيف والنهر . ﴿ **قولا كريما** ﴾ أى ليناً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية ، خفض لها جناحه . فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك . والثانى: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع ، نشر جناحه . وإذا أراد النزول ، خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع . وفى إضافة الجناح إلى الذل وجهان : الأول : أنها كإضافة حاتم إلى الجود فى قولك : حاتم الجود . فالأصل فيه : الجناح الذليل . والثانى : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً . وقرأ الجمهور : ﴿ **الذل** ﴾ بضم الذال من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل . وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير بكسر الذال . وروى ذلك عن ابن عباس وعاصم من قولهم : دابة ذلول . بينة الذل ، أى منقادة سهلة لا صعوبة فيها .

و﴿ **من الرحمة** ﴾ فيه معنى التعليل ، أى من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . ثم كأنه قال له سبحانه : ولا تكتف برحمتك التى لا دوام لها ولكن ﴿ **قل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ والكاف فى محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى رحمة مثل تربيتهما لى ، أو مثل رحمتهما لى . وقيل : ليس المراد رحمة مثل الرحمة ، بل الكاف لاقترانهما فى الوجود ، فلتقع هذه كما وقعت تلك . والتربية :التنمية . ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، أى لأجل تربيتهما لى ، كقوله: ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : ١٩٨] . ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقول وتقف عندها شعورهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ قال : من كان يريد بعمله الدنيا. ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ ذاك به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم، وأبو نعيم فى الحلية عن الحسن فى قوله : ﴿ **كلا نمد** ﴾ الآية ، قال : كل يرزق الله فى الدنيا البر والفاجر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية ، قال : يرزق الله من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : ﴿ **محظورا** ﴾: ممنوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد مثله .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سلمان عن النبى ﷺ ، قال : «ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة ، فارتفع بها إلا وضعه الله فى الآخرة درجة أكبر منها وأطول » ، ثم قرأ : ﴿ **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ . وهو من رواية زاذان عن سلمان [١] . وثبت فى الصحيحين : « أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر فى أفق السماء » [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مذموما** ﴾ ، يقول : ملوماً .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ : « ووصى ربك » مكان ﴿ **وقضى** ﴾ وقال : التزقت الواو والصاد ، وأنتم تقرؤونها : ﴿ **وقضى ربك**﴾. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه مثله . وأخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله . وزاد : « ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد » . وأقول : إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر . وهو وإن كان أحد معانى مطلق القضاء كما فى قوله: ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ [يوسف : ٤١]، وقوله: ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾

---

(١) الطبرانى (٦١٠١) وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٤ ٢ . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٢ : « فيه أبو الصباح عبد الغفور وهو متروك » .

(٢) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) وفى الرقاق (٦٥٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١/ ١١) والترمذى فى المناقب (٣٦٥٨) وقال : «حديث حسن » وابن ماجة فى المقدمة (٩٦) وكلهم عن أبى سعيد الخدرى .

[البقرة : ٢٠٠] ، ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ [النساء : ١٠٣] ولكنه هاهنا بمعنى الأمر . وهو أحد معانى القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه . ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم ألا يقع الشرك من المشركين. ومن معانى مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين، كالقضاء بمعنى : الخلق. ومنه : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] . وبمعنى : الإرادة كقوله : ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [آل عمران : ٤٧] . وبمعنى : العهد كقوله : ﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : ٤٤] .وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقضى ربك** ﴾ قال : أمر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : عهد ربك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ يقول : براً . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾ لما تميط عنهما من الأذى : الخلاء ، والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول . وأخرج الديلمى عن الحسين بن على مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرمه (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى قوله : ﴿ **وقل لهما قولاً كريما** ﴾ قال : إذا دعواك ، فقل : لبيكما وسعديكما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : قولاً ليناً سهلاً . وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة فى قوله : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل** ﴾ قال : يلين لهما حتى لا يمتنع من شىء أحباه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية ، قال : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقل رب ارحمهما** ﴾ ، ثم أنزل الله بعد هذا ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى﴾ [التوبة:١١٣]. وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه نحوه . وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وهى معروفة فى كتب الحديث .

﴿ **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ** ﴾

(١) الديلمى فى الفردوس (٥٠٦٣) .

مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم** ﴾ أى بما فى ضمائركم من الإخلاص وعدمه فى كل الطاعات ، ومن التوبة من الذنب الذى فرط منكم أو الإصرار عليه . ويندرج تحت هذا العموم ما فى النفس من البر والعقوق اندراجًا أوليًا . وقيل : إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البر. ويحرم على الأولاد من العقوق . والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ قاصدين الصلاح والتوبة من الذنب ، والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذى تبتم عنه . ﴿ **فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ أى الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة ، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص . ﴿ **غفورا** ﴾ لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد . فمن تاب ، تاب الله عليه . ومن رجع إلى الله ، رجع الله إليه .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ ، والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما فى قوله : ﴿ **وقضى ربك** ﴾ والمراد بذى القربى : ذو القرابة . وحقهم هو صلة الرحم التى أمر الله بها ، وكرر التوصية فيها . والخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة ، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد ، والأولاد على الوالدين معروف . والذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال و﴿**المسكين** ﴾ معطوف على ﴿ **ذا القربى** ﴾ وفى هذا العطف دليل على أن المراد بالحق : الحق المالى و ﴿ **ابن السبيل** ﴾ معطوف على المسكين ، والمعنى : وآت من اتصف بالمسكنة أو بكونه من أبناء السبيل حقه . وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل فى البقرة وفى التوبة . والمراد فى هذه الآية : التصدق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل ، أو بما فرضه الله لهما من صدقة الفرض ، فإنهما من الأصناف الثمانية التى هى مصرف الزكاة .

ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا ، نهى عن التبذير فقال: ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ التبذير : تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الإسراف المذموم ، لمجاوزته للحد المستحسن شرعًا فى الإنفاق ، أو هو الإنفاق فى غير الحق ، وإن كان يسيراً . قال الشافعى: التبذير : إنفاق المال فى غير حقه . ولا تبذير فى عمل الخير . قال القرطبى بعد

حكايته لقول الشافعى هذا : وهذا قول الجمهور [١] . قال أشهب عن مالك : التبذير : هو أخذ المال من حقه ، ووضعه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله : ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهى عن التبذير . والمراد بالإخوة : المماثلة التامة . وتجنب مماثلة الشيطان ولو فى خصلة واحدة من خصاله واجب ، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة . والإسراف فى الإنفاق من عمل الشيطان . فإذا فعله أحد من بنى آدم ، فقد أطاع الشيطان واقتدى به . ﴿ **وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾ أى كثير الكفران ، عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شرا ،ولا يأمر إلا بعمل الشر ، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه . وفى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين . ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور . فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان . وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان . وكل شيطان كفور . فالمبذر كفور .

﴿ **وإما تعرضن عنهم** ﴾ قد تقدم قريباً أن أصل « إما » هذه مركب من « إن » الشرطية و«ما» الإبهامية ، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهى ، أى إن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الإعراض ﴿ **ابتغاء رحمة من ربك** ﴾ أى لفقد رزق من ربك ، ولكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذى هو فقد الرزق ، لأن فاقد الرزق مبتغ له ، والمعنى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿ **فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ أى قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل ، أوالاعتذار المقبول . قال الكسائى : يسرت له القول ، أى لينته . قال الفراء : معنى الآية : إن تعرض عن السائل إضاقة وإعساراً ﴿ **فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ : عدهم عدة حسنة . ويجوز أن يكون المعنى : وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك ، فقل لهم قولا ميسوراً . وليس المراد هنا الإعراض بالوجه . وفى هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون ، وبما يردون. ولقد أحسن من قال :

إنْ لا يَكُنْ وَرِقٌ يَوْماً أَجُودُ بِها ... للسَائلين فإنِّى ليِّن العُودِ
لا يَعْدم السَائلُون الخيْرَ مِنْ خُلقِى ... إمَّا نَوالٌ وإمَّا حُسنُ مَرْدُودِ

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير ، بين أدب الإنفاق فقال . ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ وهذا النهى يتناول كل مكلف ، سواء كان الخطاب للنبى ﷺ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد : النهى للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع فى الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط . وهو العدل الذى ندب الله إليه .

(١) انظر طبى ٦/ ٣٨٦٣ .

ولا تك فيها مُفْرِطاً أومُفَرِّطاً كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقد مثل الله سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه . بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد فى التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدى عليه . وفى هذا التصوير مبالغة بليغة . ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهى عنهما فقال : ﴿ **فتقعد ملوما** ﴾ عن الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿ **محسورا** ﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف ، أى منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر . والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حسره السفر : إذا بلغ منه . والبعير الحسير : هو الذى ذهبت قوته ، فلا انبعاث به . ومنه قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ [الملك : ٤]، أى : كليل منقطع . وقيل : معناه : نادماً على ما سلف . فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة . وفيه نظر، لأن الفاعل من الحسرة : حسران . ولا يقال : محسور إلا للملوم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أى يوسعه على بعض ، ويضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا لكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ، ومن ضيقه عليه هائنا لديه . قيل : ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذى لاتفنى خزائنه ، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا . ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله : ﴿ **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ أى يعلم ما يسرون وما يعلنون ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ، فهو الخبير بأحوالهم ، البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم . وفى هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده . فلذلك قال بعدها : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أملق الرجل : لم يبق له إلا الملقات ، وهى الحجارة العظام الملس ، قال الهذلى يصف صائداً :

أتيح لها أقيدر ذو خشيف إذا سامت على الملقات ساما

الأقيدر : تصغير الأقدر وهو الرجل القصير ، والخشيف من الثياب : الخلق . وسامت : مرت . ويقال : أملق : إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده . قال أوس :

وأملق ما عندى خطوب تنبل

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك . ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له . فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده ، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء ، فقال : ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع . وقد مر مثل هذه الآية فى الأنعام . ثم علل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلك بقوله : ﴿ **إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ . قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون

الطاء ، وبالهمز المقصور . وقرأ ابن عامر : « خطأ » بفتح الخاء والطاء والقصر فى الهمز . يقال: خطئ فى دينه خطئاً : إذا أثم . وأخطأ : إذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد . قال الأزهرى : خطئ يخطأ خطئا ، مثل : أثم يأثم إثما ، إذا تعمد الخطأ. وأخطأ : إذا لم يتعمد إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنَّما خَطْئِى وصَوْبِى علىَّ ، وأنَّ ما أهلكتُ ، مالُ (١)

والخطأ : الاسم يقوم مقام الأخطاء . وفيه لغتان : القصر ، وهو الجيد ، والمد ، وهو قليل . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ، ومد الهمز . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً . وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن : «خطا» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لإفناء النسل ، ذكر النهى عن الزنى المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب ، فقال : ﴿ **ولا تقربوا الزنى** ﴾ وفى النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشىء إذا كانت حراماً ، كان المتوسل إليه حراماً بنحوى الخطاب . والزنى فيه لغتان : المد والقصر . قال الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضةُ مَا تَقُول كَمَا كان الزناء فريضـةَ الرَّجْـمِ

ثم علل النهى عن الزنا بقوله : ﴿ **إنه كان فاحشة** ﴾ أى قبيحا متبالغا فى القبح ، مجاوزاً للحد . ﴿ **وساء سبيلا** ﴾ أى بئس طريقا طريقه ، وذلك لأنه يؤدى إلى النار . ولا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب . وقد ورد فى تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم .

ولما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد ، وعن النهى عن الزنا الذى يفضى إلى ما يفضى إليه قتل الأولاد ، من اختلاط الأنساب ، وعدم استقرارها ، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال: ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ والمراد بالتى حرم الله: التى جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد . والمراد بالحق الذى استثناه : هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل . وذلك كالردة ، والزنا من المحصن ، وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا ، وما يلتحق بذلك . والاستثناء مفرغ ، أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق ، أو إلا متلبسين بالحق . وقد تقدم الكلام فى هذا فى الأنعام .

ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال : ﴿ **ومن قتل مظلوما** ﴾ أى لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ أى لمن يلى أمره من ورثته إن كانوا موجودين ، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين . والسلطان : التسلط على القاتل ، إن

(١) فى المخطوطة : « أخطاء وصد . . . مالىّ » ، و الصواب ما أثبتناه من لسان العرب ١/ ٥٣٥ .

شاء قتل ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية . ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول ، أو ما هو عوض عن القصاص ، نهاه عن مجاوزة الحد فقال: ﴿ **فلا يسرف في القتل** ﴾ أي لا يجاوز ما أباحه الله له ، فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة ، أو يمثل بالقاتل ، أو يعذبه . قرأ الجمهور : ﴿ **لا يسرف** ﴾ بالياء التحتية، أى الولى . وقرأ حمزة والكسائى : « تسرف » بالتاء الفوقية . وهو خطاب للقاتل الأول . ونهى له عن القتل ، أى فلا تسرف أيها القاتل بالقتل ، فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته . وقال ابن جرير[١] : الخطاب للنبى ﷺ وللأئمة من بعده ، أى لا تقتل يا محمد غير القاتل ، ولا يفعل ذلك الأئمة بعدك. وفى قراءة أبى : « ولا تسرفوا » ، ثم علل النهى عن السرف فقال : ﴿ **إنه كان منصورا** ﴾ أى مؤيداً معاناً ، يعنى: الولى . فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة. وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه . ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول ، أى إن الله نصره بوليه . قيل : وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ إن تكن النية صادقة ﴿ **فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ للبادرة التى بدرت منه . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عنه فى قوله : ﴿ **إنه كان للأوابين غفورا** ﴾ ، قال: الرجاعين إلى الخير . وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبى حاتم والبيهقى عن الضحاك فى الآية، قال : الرجاعين من الذنب إلى التوبة ومن السيئات إلى الحسنات. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **للأوابين** ﴾ قال: للمطيعين المحسنين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه ، قال : للتوابين .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ قال : أمره بأحق الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده ، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده فقال : ﴿ **وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها** ﴾ قال : إذا سألوك وليس عندك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿ **فقل لهم قولاً ميسورا** ﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة. قال سفيان : والعدة من النبى ﷺ دين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية ، قال : هو أن تصل ذا القرابة ، وتطعم المسكين ، وتحسن إلى ابن السبيل . وأخرج ابن جرير عن على بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم. قال: فما قرأت فى بنى إسرائيل : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ ؟ قال: وإنكم للقرابة التى أمر الله أن يؤتى حقهم ؟ قال : نعم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية ، قال : والقربى : قربى بنى عبد المطلب .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٥٩ .

وأقول : ليس فى السياق ما يفيد هذا التخصيص ، ولا دل على ذلك دليل . ومعنى النظم القرآنى واضح ، إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة ؛ لأن معناه : أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التى أمر الله بها . وإن كان الخطاب للنبى ﷺ فإن كان على وجه التعريض لأمته ، فالأمر فيه كالأول. وإن كان خطاباً له من دون تعريض ، فأمته أسوته ، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذى القربى حقه، أمر لكل فرد من أفراد أمته. والظاهر : أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبى ﷺ بدليل ما قبل هذه الآية ، وهى قوله : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء : ٢٣] وما بعدها ، وهى قوله: ﴿ **ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ . وفى معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة .

وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أنس ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة . فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال : « تخرج الزكاة المفروضة ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقاربك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين»، فقال : يا رسول الله ، أقلل لى . قال : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ». قال : حسبى يا رسول الله [1] . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك [2] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت: ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فدك . قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبى سعيد هذا ما لفظه : وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده . لأن الآية مكية . وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟ انتهى [3] .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ قال : التبذير : إنفاق المال فى غير حقه . وأخرج ابن جرير عنه قال : كنا ـ أصحاب محمد ـ نتحدث أن التبذير : النفقة فى غير حقه . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن المبذرين** ﴾ قال : هم الذين ينفقون المال فى غير حقه . وأخرج البيهقى فى

---

(١) أحمد ٣/ ١٣٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) أبو يعلى (١٠٧٥ ، ١٤٠٩) وإسناده ضعيف لضعف عطية ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٢ : « رواه الطبرانى وفيه عطية العوفى ، وهو ضعيف متروك » .

والفدك بالتحريك : هى قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله ﷺ صلحاً فى سنة سبع . فصالح النبى ﷺ أهلها على النصف من ثمارهم وأموالهم ، فأجابهم فى ذلك .

(٣) ابن كثير ٤/ ٣٠٢ وقال : « فهذا إذاً منكر ، والأشبه أنه من وضع الرافضة ، والله أعلم » .

الشعب عن على قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك . وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقل لهم قولاً ميسورا** ﴾ قال : العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن يسار بن الحكم (١) ، قال : أتى رسول الله ﷺ بر من العراق ، وكان معطاء كريماً، فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب ، فقالوا : إنا نأتى النبى ﷺ نسأله ، فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ قال: محبوسة ﴿ **ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما** ﴾ يلومك الناس ﴿ **محسورا**﴾ ليس بيدك شىء . أقول : ولا أدرى كيف هذا ؟ فالآية مكية . ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ، ولا يحمل إليه شىء من العراق ولا مما هو أقرب منه ، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ . وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو : بعثت امرأة إلى النبى ﷺ بابنها فقالت : قل له : اكسنى ثوباً . فقال : « ما عندى شىء » . فقالت : ارجع إليه فقل له : اكسنى قميصك . فرجع إليه ، فنزع قميصه فأعطاها إياه . فنزلت : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة** . . . ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال لعائشة وضرب بيده : « أنفقى ما على ظهر كفى » . قالت : إذن لا يبقى شىء . قال : ذلك ثلاث مرات . فأنزل الله : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة** . . . ﴾ الآية . ويقدح فى ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولاتجعل يدك مغلولة** ﴾ قال : يعنى بذلك : البخل . وأخرجا عنه فى الآية ، قال : هذا فى النفقة ، يقول : لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير ، ولا تبسطها كل البسط يعنى : التبذير . ﴿ **فتقعد ملوما** ﴾ يلوم نفسه على ما فاته من ماله ﴿ **محسورا** ﴾ ذهب ماله كله .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ قال: ينظر له ، فإن كان الغنى خيراً له ، أغناه . وإن كان الفقر خيراً له ، أفقره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **خشية إملاق** ﴾ قال: مخافة الفقر والفاقة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**خطأ** ﴾ قال : خطيئة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ولا تقربوا الزنى** ﴾ قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبى بن كعب ؛ أنه قرأ : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ، إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً » . فذكر لعمر ، فأتاه فسأله . فقال : أخذتها من فى رسول الله ،

---

(١) فى المخطوطة : « سيار بن الحكم » ، والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/ ١٧٨ .

(٢) ليس فى ابن جرير ، وإنما نسبه السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٧٨ لابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو .

وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع . وقد ورد فى الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولا تقتلوا النفس** . . . ﴾ الآية ، قال : هذا بمكة ونبى الله ﷺ بها ، وهو أول شىء نزل من القرآن فى شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله : من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبا أو أخاً أو واحداً من عشيرته ، وإن كانوا مشركين ، فلا تقتلوا إلا قاتلكم ، وهذا قبل أن تنزل براءة . وقبل أن يؤمر بقتال المشركين، فذلك قوله : ﴿ **فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا** ﴾ يقول : لا تقتل غير قاتلك . وهى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين ، لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم [١] . وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد ابن أسلم ؛ أن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً ، لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً وإذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره . فوعظوا فى ذلك بقول الله سبحانه : ﴿ **ولا تقتلوا النفس** . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا يسرف فى القتل** ﴾ [٢] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ قال : بينة من الله أنزلها ، يطلبها ولى المقتول ، القود أو العقل. وذلك السلطان [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عنه : ﴿ **فلا يسرف فى القتل** ﴾ قال : لا يكثر فى القتل . وأخرج ابن المنذر ، من طريق أبى صالح عنه أيضاً: لا يقتل إلا قاتل رحمه .

﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٦٠ ، ٦١ .

(٢) البيهقى ٨/ ٢٥ .

(٣) ابن جرير ١٥/ ٥٩ .

لما ذكر سبحانه النهى عن إتلاف النفوس ، أتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال ، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ ، والنهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له وإتلافه . ثم بين سبحانه أن النهى عن قربانه ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده ، بل يجوز لولى اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته ، فقال : ﴿ **إلا بالتى هى أحسن** ﴾ أى إلا بالخصلة التى هى أحسن الخصال ، وهى حفظه ، وطلب الربح فيه ، والسعى فيما يزيد به . ثم ذكر الغاية التى للنهى عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى لا تقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده. فإذا بلغ أشده ، كان لكم أن تدفعوه إليه ، أو تتصرفوا فيه بإذنه . وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام . ﴿ **وأوفوا بالعهد** ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه ، فهو من العهد . فيدخل فى ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض . ﴿ **إن العهد كان مسؤولا** ﴾ أى مسؤولاً عنه . المسؤول هنا : هو صاحبه . وقيل : إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه .

﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم** ﴾ أى أتموا الكيل ، ولا تخسروه وقت كيلكم للناس . ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ قال الزجاج : هو ميزان العدل ، أى ميزان كان ، من موازين الدراهم وغيرها . وفيه لغتان : ضم القاف وكسرها . وقيل : هو القبان المسمى بالقرسطون . وقيل : هو العدل نفسه . وهى لغة الروم . وقيل : لغة سريانية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر : « القُسطاس » بضم القاف . وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بكسر القاف . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **خير** ﴾ أى خير لكم عند الله وعند الناس ، يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس فى معاملة من كان كذلك ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ أى أحسن عاقبة ، من آل : إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب ، فقال : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ أى لا تتبع مالا تعلم . من قولك: قفوت فلاناً : إذا اتبعت أثره . ومنه : قافية الشعر ، لأنها تقفو كل بيت ، ومنه : القبيلة المشهورة بالقافة، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس . وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل : عثا وعاث . قال منذر بن سعيد البلوطى : قفا وقاف ، مثل: جذب وجبذ . وحكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ : « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الفراء بفتح القاف . وهى لغة لبعض العرب ، وأنكرها أبو حاتم وغيره . ومعنى الآية : النهى عن أن يقول الإنسان مالا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به . وهذه قضية كلية . وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور . فقيل: لا تذم أحداً بما ليس لك به علم. وقيل : هى فى شهادة الزور . وقيل : هى فى القذف . وقال القتيبى : معنى الآية : لا تتبع الحدس والظنون . وهذا صواب . فإن ما عدا ذلك هو العلم . وقيل : المراد بالعلم هنا : هو علم

الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان أو ظنيا . قال أبو السعود فى تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه [١] .

وأقول : إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام ، وبخبر الواحد ، والعمل بالشهادة ، والاجتهاد فى القبلة وفى جزاء الصيد ، ونحو ذلك . فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ [النجم : ٢٨] . إلا ما قام دليل جواز العمل به ، فالعمل بالرأى فى مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل فى الكتاب والسنة ، فقد رخص فيه النبى ﷺ كما فى قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضيا : « بم تقضى ؟ » قال : بكتاب الله . قال : «فإن لم تجد ؟ » قال : فبسنة رسول الله . قال : «فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيى [٢] . وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك فى بحث مفرد . وأما التوثب على الرأى مع وجود الدليل فى الكتاب أو السنة ولكن قصر صاحب الرأى عن البحث ، فجاء برأيه ، فهو داخل تحت هذا النهى دخولاً أولياً ، لأنه محض رأى فى شرع الله ، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسول الله ﷺ ولم تدع إليه حاجة ، على أن الترخيص فى الرأى عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به . ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به ، وينزله منزلة مسائل الشرع . وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة فى الكتب الفروعية ليست من الشرع فى شىء . والعامل بها على شفا جرف هار . فالمجتهد المستكثر من الرأى قد قفا ما ليس له به علم . والمقلد المسكين العامل برأى ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده . ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ [النور : ٤٠] . وقد قيل : إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً.

ثم علل سبحانه النهى عن العمل بما ليس يعلم بقوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. وقال الزجاج : إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بـ: أولئك . وأنشد ابن جرير ، مستدلا على جواز هذا ، قول الشاعر :

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام. وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف[٣].

---

(١) أبو السعود فى التفسير ٣/ ٣٢٧ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٣٦ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢ ، ٣٥٩٣) والترمذى فى الأحكام (١٣٢٧ ، ١٣٢٨) وقال : « هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندى بمتصل » ، وهو عن رجال من أصحاب معاذ ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) الكشاف ٢/ ٢٦٧ .

والضمير فى ﴿**كان** ﴾ من قوله : ﴿ **كان عنه مسؤولا** ﴾ يرجع إلى « كل » . وكذا الضمير فى «عنه » . وقيل : الضمير فى ﴿ **كان** ﴾ يعود إلى القافى المدلول عليه بقوله : ﴿ **ولا تقف** ﴾ . وقوله : « عنه » فى محل رفع لإسناد ﴿ **مسؤولا** ﴾ إليه . ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أومجروراً . قيل : والأولى أن يقال : إنه فاعل ﴿ **مسؤولا** ﴾ المحذوف . والمذكور مفسر له . ومعنى سؤال هذه الجوارح : أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات. والمستعمل لها : هو الروح الإنسانى . فإن استعملها فى الخير استحق الثواب ، وإن استعملها فى الشر استحق العقاب . وقيل : إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها .

﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ المرح : قيل : هو شدة الفرح. وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقيل : الخيلاء فى المشى . وقيل : البطر والأشر . وقيل : النشاط . والظاهر أن المراد به هنا : الخيلاء والفخر . قال الزجاج فى تفسير الآية : لا تمش فى الأرض مختالاً فخوراً . وذكر الأرض مع أن المشى لايكون إلا عليها ، أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً . ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت فى عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح : مصدر وقع حالاً ، أى ذا مرح . وفى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد . وقرأ الجمهور : ﴿ **مرحا** ﴾ بفتح الراء على المصدر . وحكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل . ثم علل سبحانه هذا النهى فقال : ﴿ **إنك لن تخرق الأرض** ﴾ . يقال : خرق الثوب ، أى شقه . وخرق الأرض : قطعها . والخرق : الواسع من الأرض ، والمعنى : إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً . وفيه تهكم بالمختال المتكبر . ﴿ **ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ أى ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال ، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها ، ولا عظم فى بدنك حتى تطاول الجبال ، فما الحامل لك على ما أنت فيه ؟ و ﴿ **طولا** ﴾ مصدر فى موضع الحال ، أو تمييز ، أو مفعول له وقيل : المراد بخرق الأرض: نقبها ، لا قطعها بالمسافة . وقال الأزهرى : خرقها: قطعها . قال النحاس : وهذا أبين ، كأنه مأخوذ من الخرق ، وهو : الفتحة الواسعة . ويقال : فلان أخرق من فلان، أى أكثر سفراً . والإشارة بقوله : ﴿ **كل ذلك** ﴾ إلى جميع ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهى ، أو إلى مانهى عنه فقط من قوله: ﴿ **ولا تقف** ﴾ ﴿**ولا تمش**﴾ .

قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق: ﴿ **سيئه**﴾ على إضافة سيئ إلى الضمير. ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿ **مكروها** ﴾ فإن السيئ هو المكروه . ويؤيدها أيضاً قراءة أبى : « كان سيئاته » . واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : « سيئة » على أنها

واحدة السيئات . وانتصابها على خبرية كان. ويكون ﴿ **مكروها** ﴾ صفة لـ «سيئة» على المعنى. فإنها بمعنى: « سيئاً » ، أو هو بدل من « سيئة » . وقيل : هو خبر ثان لـ ﴿ **كان** ﴾ حملاً على لفظ ﴿ **كل** ﴾ . ورجح أبوعلى الفارسى البدل . وقد قيل فى توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى . قال الزجاج: والإضافة أحسن ، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيئ وحسن ، فسيئه المكروه . ويقوى ذلك التذكير فى المكروه . قال : ومن قرأ بالتنوين ، جعل ﴿ **كل ذلك** ﴾ إحاطة بالمنهى عنه دون الحسن . المعنى : كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً . قال : والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة ، وليس بنعت .

والمراد بالمكروه عند الله : هو الذى يبغضه ولا يرضاه ، لا أنه غير مراد مطلقاً لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه . وذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك . والحاصل : أن فى الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهى عنه. فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله : ﴿**كل ذلك** ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروهها. ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء وهو المنهى عنه مكروه ، عند الله . وعلى قراءة الإفراد من دون إضافة ، تكون الإشارة إلى المنهيات. ثم الإخبار عن هذه المنهيات ، بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿ **لا تجعل**﴾ إلى هذه الغاية ، وترتقى إلى خمسة وعشرين تكليفاً ﴿ **مما أوحى إليك ربك** ﴾ أى من جنسه أو بعض منه . وسمى حكمة ؛ لأنه كلام محكم . وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق إليها الفساد . وعند الحكماء : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته . و﴿ **من الحكمة** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أى كائناً من الحكمة ، أو بدل من الموصول بإعادة الجار ، أو متعلق بـ ﴿ **أوحى** ﴾ . ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ كرر سبحانه النهى عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين [1] وعمدته . قيل : وقد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دقيقة، فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً . وذلك إشارة إلى حال الشرك فى الدنيا. ورتب على الثانى أنه يلقى ﴿ **فى جهنم ملوماً مدحورا** ﴾ وذلك إشارة إلى حاله فى الآخرة ، وفى القعود هناك . والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة. وقد تقدم تفسير الملوم والمدحور .

﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا** ﴾ قال أبو عبيدة : ﴿ **أصفاكم** ﴾ : خصكم . وقال الفضل : أخلصكم . وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله . وفيه

---

(١) قوله : وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته : الضمير فى قوله : « أنه » راجع إلى التوحيد ، حيث أنه لا دين بغير التوحيد ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

توبيخ شديد ، وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل . والفاء للعطف على مقدر ، كنظائره مما قد كررناه ﴿ **إنكم لتقولون** ﴾ يعنى : القائلين بأن لهم الذكور ولله الإناث ﴿ **قولا عظيما** ﴾ بالغاً فى العظم والجراءة على الله إلى مكان لا يقادر قدره .

﴿ **ولقد صرفنا فى هذا القرآن** ﴾ أى بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها ، أو كررنا فيه . وقيل : « فى » زائدة. والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن . والتصريف فى الأصل : صرف الشىء من جهة إلى جهة . وقيل : معنى التصريف: المغايرة ، أى غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا . وقراءة الجمهور : ﴿ **صرفنا** ﴾ بالتشديد . وقرأ الحسن بالتخفيف ، ثم علل تعالى ذلك فقال : ﴿ **ليذكروا** ﴾ أى ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ليذكروا » مخففاً ، والباقون بالتشديد . واختارها أبوعبيد لما تفيده من معنى التكثير . وجملة : ﴿ **وما يزيدهم إلا نفورا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر فى الصواب ؛ لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر ، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ قال : كانوا لا يخالطونهم فى مال ولامأكل ولا مركب حتى نزلت : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة: ٢٢٠] (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إن العهد كان مسؤولا** ﴾ قال : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية، قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم** ﴾ يعنى : لغيركم . ﴿ **وزنوا بالقسطاس** ﴾ يعنى : الميزان . وبلغة الروم : الميزان : القسطاس . ﴿ **ذلك خير** ﴾ يعنى : وفاء الكيل والميزان خير من النقصان . ﴿ **وأحسن تأويلا** ﴾ : عاقبة . وأخرج ابن أبى شيبة والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ، قال : القسطاس : القبان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : الحديد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا تقف** ﴾ قال : لا تقل . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن الحنفية فى الآية قال : شهادة الزور . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ يقول : سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه . وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾

---

(١) ابن جرير ١٥ / ٦٠، ٦١ .

قال : يوم القيامة ، أكذلك كان أم لا ؟

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ قال : لا تمش فخراً وكبراً ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ، ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ، قال : إن التوراة فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ، ثم تلا : ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مدحورا** ﴾ قال : مطروداً .

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما تقولون** ﴾ : قرأ ابن كثير وحفص : ﴿ **يقولون** ﴾ بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ، وإذن : جواب عن مقالتهم الباطلة وجزاء لـ : « لو» . ﴿ **لابتغوا إلى ذى العرش** ﴾ وهو الله سبحانه . ﴿**سبيلا**﴾: طريقا للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة . وقيل : معناه : إذن لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده ، لأنهم دونه ، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله . والظاهر المعنى الأول ، ومثل معناه قوله سبحانه : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٣]. ثم نزه تعالى نفسه ، فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ والتسبيح : التنزيه ، وقد تقدم ﴿ **وتعالى** ﴾ متباعد ﴿ **عما يقولون** ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿ **علوا** ﴾ أى تعالياً ، ولكنه وضع العلو موضع التعالى كقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ [نوح : ١٧] . ثم وصف العلو بالكبر مبالغة فى النزاهة ، وتنبيها على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين الغنى المطلق ، والفقير المطلق ، مباينة لا تعقل الزيادة عليها .

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿ **يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾ قرئ بالمثناة التحتية فى يسبح وبالفوقية ، وقال : ﴿ **فيهن** ﴾ بضمير العقلاء لإسناده

إليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التى لا تعقل ، ثم زاد ذلك تعميما وتأكيداً فقال: ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ فشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان . وقيل : إنه يحمل قوله : ﴿ **ومن فيهن** ﴾ على الملائكة والثقلين ، ويحمل ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره . والمراد : أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوما لكل أحد . وأجيب : بأن المراد بقوله : ﴿**لاتفقهون** ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار . وقالت طائفة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات . وقيل : خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل لذلك بحديث : أن النبى ﷺ مر على قبرين . . . وفيه : ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، وقال : « إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا» [(١)] ، ويؤيد حمل الآية على العموم قوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ [ص : ١٨] ، وقوله : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقوله : ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ [مريم : ٩٠] ونحو ذلك من الآيات ، وثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام ، وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ [(٢)]. وهكذا حديث حنين الجذع[(٣)]، وحديث : أن حجراً بمكة كان يسلم على النبى ﷺ [(٤)]، وكلها فى الصحيح ، ومن ذلك « تسبيح الحصى فى كفه ﷺ » ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

ومعنى : ﴿ **إلا يسبح بحمده** ﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ .

---

(١) أحمد ١/ ٢٢٥ والبخارى فى الوضوء (٢١٦ ، ٢١٨) وأبو داود فى الطهارة (٢٠) والترمذى فى الطهارة (٧٠) وقال : « حسن صحيح» وابن ماجه فى الطهارة (٣٤٧) وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) البخارى فى المناقب (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما (٣٥٨٤ ، ٣٥٨٥) من حديث جابر ابن عبد الله .

(٤) مسلم فى الفضائل (٢٢٧٧/ ٢) من حديث جابر بن سَمُرَة .

قرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائى وخلف : « تسبح » بالمثناة الفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم .

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال: ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا ، أى إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك . ذكر معناه الزجاج وغيره ، ومعنى ﴿ **مستورا** ﴾ : ساتر . قال الأخفش : أراد ساترا ، والفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول : إنك لمشؤوم وميمون ، وإنما هو شائم ويامن. وقيل : معنى ﴿ **مستورا** ﴾: ذا ستر ، كقولهم : سيل مفعم ، أى ذو إفعام . وقيل : هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها . وقيل : حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره . وقيل : المراد بالحجاب المستور : الطبع والختم .

﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ الأكنة : جمع كنان . وقد تقدم تفسيره فى الأنعام [1] . وقيل : هو حكاية لما كانوا يقولونه ، من قولهم : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : ٨٨] .﴿ وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : ٥] و﴿ **أن يفقهوه** ﴾ مفعول لأجله ، أى كراهة أن يفقهوه ، أولئلا يفقهوه ، أى يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى ﴿**وفى آذانهم وقرا** ﴾ أى صمما وثقلا ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أن يسمعوه . ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه ، فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس ، ولهذا قال الله : ﴿ **وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده** ﴾ أى واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم ، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿ **ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ هو مصدر ، والتقدير : هربوا نفوراً ، أو نفروا نفوراً . وقيل : جمع نافر كقاعد وقعود . والأول أولى. ويكون المصدر فى موضع الحال ، أى ولوا نافرين .

﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به** ﴾ أى يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو فى ذكرك لربك وحده. وقيل : الباء زائدة والظرف فى ﴿ **إذ يستمعون إليك** ﴾ متعلق بـ ﴿ **أعلم** ﴾ أى نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، وفيه تأكيد للوعيد ، وقوله : ﴿**وإذ هم نجوى** ﴾ متعلق بأعلم أيضا ، أى ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ﴿ **يقول**﴾ بدل من ﴿ **إذ هم نجوى** ﴾. ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم : ما تتبعون إلا رجلا سحر

---

(١) عند قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

فاختلط عقله وزال عن حدّ الاعتدال . قال ابن الأعرابى : المسحور : الذاهب العقل الذى أفسد، من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله ، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها . وقيل : المسحور : المخدوع ، لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأنهم زعموا أن محمدا ﷺ كان يتعلم من بعض الناس ، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم . وقال أبو عبيدة : معنى ﴿**مسحورا**﴾: أن له سحراً ، أى رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب فهو مثلكم ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره ، وكل من كان يأكل من آدمى أو غيره مسحور ، ومنه قول امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى نغذى ونعلل . قال ابن قتيبة : لا أدرى ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال** ﴾ أى قالوا تارة : إنك كاهن، وتارة ساحر، وتارة شاعر، وتارة مجنون ﴿ **فضلوا** ﴾ عن طريق الصواب فى جميع ذلك ﴿ **فلا يستطيعون سبيلا** ﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذى تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه . وقيل : لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم : ساحر مجنون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا**﴾ قال : على أن يزيلوا ملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط ؛ أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : « سمعت تسبيحا من السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » (١) . وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال: «أطت السماء ويحقها أن تئط ، والذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا قال لابنه : يا بنى ، آمرك أن تقول سبحان الله ، فإنها صلاة الخلائق ، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ (٢) . وأخرج أحمد

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٧ ، ٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٣ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، ومسكين بن ميمون ذكر له الذهبى هذا الحديث وقال : إنه منكر » .

(٢) ابن جرير ١٥/ ٦٥ وقال ابن كثير ٤/ ٣١٢ : « إسناده فيه ضعف فإن الأودى ضعيف عند الأكثرين » .

وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال : ما من عبد سبح تسبيحة إلا سبح ما خلق الله من شىء ، قال الله : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال ابن كثير : إسناده فيه ضعف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قرصت نملة نبيا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح » (١) . وأخرج النسائى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : « نقيقها تسبيح » (٢).

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : الزرع يسبح وأجره لصاحبه ، والثوب يسبح ويقول الوسخ : إن كنت مؤمنا فاغسلنى إذن . وأخرج أبوالشيخ عنه قال : كل شىء يسبح إلا الكلب والحمار . وأخرج ابن راهويه فى مسنده من طريق الزهرى قال : أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحيه ويقول : ما صِيد من صيدٍ ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح . وأخرج أحمد فى الزهد ، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه من حديث أبى هريرة بنحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. وأخرج أبو الشيخ من حديث أبى الدرداء بمعناه. وأخرج ابن عساكر من حديث أبى رهم نحوه . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : فى التوراة تسبح له الجبال ، ويسبح له الشجر ، ويسبح له كذا ، ويسبح له كذا . وأخرج أحمد وأبوالشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد فى نفسه سرورا، فنادته ضفدعة : يا داود ، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاء . وأخرج البيهقى فى الشعب عن صدقة بن يسار قال : كان داود فى محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر فى خلقها وقال : ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله فقالت : يا داود ، أتعجبك نفسك ، لأنا على قدر ما آتانى الله أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك الله ، قال الله : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ (٣) . وفى الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات.

وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ [المسد : ١] أقبلت العوراء

---

(١) البخارى فى الجهاد (٣٠١٩) ومسلم فى السلام (٢٢٤١/ ١٤٨) وأبو داود فى الأدب (٥٢٦٦) والنسائى ٧/ ٢١٠ وابن ماجة فى الصيد (٣٢٢٥) .

(٢) النسائى ٧/ ٢١٠ ولكنها عن عبد الرحمن بن عثمان وليس عن ابن عمرو .

(٣) البيهقى فى الشعب (٤٢٦٠) فيه عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى رواد ، صدوق يخطئ . وإسناده فيه : محمد بن بشير الكندى متكلم فيه .

أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال : « إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا** ﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها [1] ، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ قال : الحجاب المستور: أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في الآية قال : ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿**ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ قال : الشياطين . وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿**إذ يستمعون إليك**﴾ قال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل.

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)** ﴾.

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال : ﴿**وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا** ﴾ والاستفهام ، للاستنكار والاستبعاد . وتقرير الشبهة : أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم ، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع ، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد

---

(١) أبو يعلى (٥٣) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦١ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٩٥ ، ١٩٦ .

صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد ، فهو كقول القائل: أتطمع في وأنا ابن فلان ؟ فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت ، فسأطلب منك حقي. والرفات: ما تكسر وبلي من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض[1]، قاله أبو عبيدة والكسائي والفراء والأخفش ، تقول منه : رفت الشيء رفتا ، أي حطم فهو مرفوت . وقيل : الرفات : الغبار. وقيل : التراب ﴿ **أإنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد ؛ تأكيدا وتقريرا . والعامل في « إذا » هو ما دل عليه ﴿**لمبعوثون**﴾ لا هو نفسه ، لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها، والتقدير: ﴿ **أئذا كنا عظاما ورفاتا** ﴾ نبعث ﴿**أإنا لمبعوثون**﴾، وانتصاب ﴿**خلقا**﴾ على المصدرية من غير لفظه ، أو على الحال ، أي مخلوقين ، و ﴿**جديدا** ﴾ صفة له.

﴿ **قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا** ﴾ آخر ﴿ **مما يكبر في صدوركم** ﴾ قال ابن جرير : معناه : إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك ، وقال علي بن عيسى : معناه : إنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عزّ وجل إذا أرادكم . إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ في الإلزام ، وقيل : معناه : لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم . قال النحاس : وهذا قول حسن ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا ، وإنما المعنى : أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث ، فقيل لهم : استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة. قلت: وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا . ﴿ **أو خلقا مما يكبر في صدوركم** ﴾ أي يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة . وقيل: المراد به : السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : المراد به : الموت ، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه . والمعنى : لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ، ولا يخفى ما في هذا من البعد ، فإن معنى الآية : الترقي من الحجارة إلى الحديد ، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر في صدور القوم منه ، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد إليه ﴿ **فسيقولون من يعيدنا** ﴾ إذا كنا عظاما ورفاتا ، أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت . ﴿ **قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ أي يعيدكم الذي خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسهم** ﴾ أي يحركونها استهزاءً . يقال : نغض رأسه ينغض وينغض وينغض نغضاً ونغوضاً ، أي تحرك ، وأنغض رأسه :حركه كالمتعجب ، ومنه قول الراجز:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا

---

(١) الرضاض :ما دق من الحصى وكل شيء كسَّرته فقد رضرضته .راجع : مختار الصحاح ٢٤٥ .

وقول الراجز الآخر :

ونغضت من هرم أسنانها

وقال آخر :

لما رأتنى أنغضت لى رأسها

﴿ **ويقولون متى هو** ﴾ أى البعث والإعادة استهزاءً منهم وسخرية ﴿ **قل عسى أن يكون قريبا** ﴾ أى هو قريب، لأن عسى فى كلام الله واجب الوقوع، ومثله: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ [الأحزاب:٦٣] . وكل ما هو آت قريب ﴿ **يوم يدعوكم** ﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر، أى اذكر ، أو بدل من ﴿ **قريبا** ﴾ أو التقدير : يوم يدعوكم كان ما كان . الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق. وقيل : هو الصيحة التى تسمعونها ، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض المحشر ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ أى منقادين له ، حامدين لما فعله بكم فهو فى محل نصب على الحال . وقيل : المعنى : فتستجيبون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر [1] لبست ولا من غدرة أتقنع

وقد روى أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، وقيل : المراد بالدعاء هنا : البعث ، وبالاستجابة : أنهم يبعثون ، فالمعنى : يوم يبعثكم فتبعثون منقادين ﴿ **وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ أى تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم فى قبوركم إلا زمناً قليلا . وقيل : بين النفختين ، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاما ينامون فيها ، فلذلك ﴿ قالوا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥٢] . وقيل : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، فقالوا هذه المقالة .

﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾ أى قل يا محمد ، لعبادى المؤمنين أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وقوله : ﴿ فقولا له قولا لينا﴾ [طه : ٤٤] ، لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدى إلى ما قال سبحانه : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وهذا كان قبل نزول آية السيف. وقيل : المعنى : قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه . وقيل : هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة ، والأول أولى كما يشهد به السبب الذى سنذكره إن شاء الله ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء. قال اليزيدى: يقال:

---

(١) فى المطبوعة : « فاخر » بالخاء ، وفى القرطبى ٦ / ٣٨٩٢ « فاجر » بالجيم ، وفى المخطوطة علق كاتبها وقال: بهما .

نزغ بيننا ، أى أفسد . وقال غيره : النزغ : الإغراء ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا** ﴾ أى متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها ، وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا فى البقرة .

﴿ **ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ قيل : هذا خطاب للمشركين . والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم عن الشرك فيعذبكم . وقيل : هو خطاب للمؤمنين ، أى ﴿ **إن يشأ يرحمكم** ﴾ بأن يحفظكم من الكفار ﴿ **أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ بتسليطهم عليكم . وقيل : إن هذا تفسير لكلمة ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ ﴿**وما أرسلناك عليهم وكيلا**﴾ أى ما وكلناك فى منعهم من الكفر ، وقسرهم على الإيمان . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ، ومنه قول الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبت كأننى برد الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل . ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالا واستحقاقاً ، وهو أعم من قوله : ﴿ **ربكم أعلم بكم** ﴾ لأن هذا يشمل كل ما فى السموات والأرض من مخلوقاته ، وذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم ، وهذا كالتوطئة لقوله : ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ أى إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله . وقد تقدم هذا فى البقرة . وقد اتخذ الله إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكا عظيما ، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وجعله سيد ولد آدم . وفى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل،ثم ذكر ما فضل به داود، فقال : ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ أى كتابا مزبورا . قال الزجاج : أى فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفاتا** ﴾ قال: غباراً . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**ورفاتا**﴾ قال : تراباً ، وفى قوله : ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديدا** ﴾ قال : ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله كما كنتم . وأخرج ابن أبى شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: ﴿ **أو خلقا مما يكبر فى صدوركم** ﴾ قال: الموت، لو كنتم موتاً لأحييتكم. وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير والحاكم عن ابن عباس مثله. وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن مثله أيضا. وأخرج عبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه ، وزاد قال : فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسهم** ﴾ قال : سيحركونها استهزاءً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿**ويقولون**

متى هو ﴾ قال : الإعادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ قال : بأمره . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ قال : بمعرفته وطاعته ﴿ **وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ أى فى الدنيا ، تحاقرت الدنيا فى أنفسهم ، وقلت حين عاينوا يوم القيامة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين فى قوله : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾ قال : لا إله إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يعفو عن السيئة . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقول له: يرحمك الله ، يغفر الله لك . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : نزغ الشيطان : تحريشه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**وآتينا داود زبورا** ﴾ قال : كنا نحدث أنه دعاء علمه داود ، وتحميد وتمجيد لله عز وجل ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : الزبور: ثناء على الله ودعاء وتسبيح . قلت : الأمر كما قاله قتادة والربيع ، فإنا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطبها داود عليه السلام ، ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخول الكنيسة ، وجملته مائة وخمسون خطبة ، كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الأولى وسكون الزاى وضم الميم الثانية وآخره راء ، ففى بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم ، وفى بعضها يحمد الله ويمجده ويثنى عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة ، وهى آلة من آلات الملاهى . وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة ، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ٧١ .

obeikandi.com

قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه** ﴾ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله . وقيل : أراد بـ ﴿ **الذين زعمتم** ﴾ نفراً من الجن عبدهم ناس من العرب ، وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ ، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ **فلا يملكون كشف الضر عنكم** ﴾ أى لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضر ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التى تزعمونها آلهة ، ليست بآلهة .

ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ، ببيان غاية افتقارهم إلى الله فى جلب المنافع ودفع المضار ، فقال : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ فـ ﴿ **أولئك** ﴾ مبتدأ و﴿**الذين يدعون** ﴾ صفته ، وضمير الصلة محذوف ، أى يدعونهم ، وخبر المبتدأ : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ **الذين يدعون** ﴾ خبر المبتدأ ، أى الذين يدعون عباده إلى عبادتهم ، ويكون ﴿ **يبتغون** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقرأ ابن مسعود : « تدعون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، ولا خلاف فى ﴿ **يبتغون** ﴾ أنه بالتحتية . و ﴿ **الوسيلة** ﴾ : القربة بالطاعة والعبادة ، أى يتضرعون إلى الله فى طلب ما يقربهم إلى ربهم ، والضمير فى ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ **أيهم أقرب** ﴾ مبتدأ وخبر . قال الزجاج: المعنى: أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله ، أى يتقرب إليه بالعمل الصالح ، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير فى ﴿ **يبتغون** ﴾ أى يبتغى من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة ، فكيف بمن دونه ؟ وقيل : إن ﴿**يبتغون**﴾ مضمن معنى يحرصون ، أى يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ **ويرجون رحمته** ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ **ويخافون عذابه** ﴾ كما يخافه غيرهم ﴿ **إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾ تعليل قوله : ﴿ **يخافون عذابه** ﴾ أى إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم .

ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿ **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة** ﴾ « إن » نافية ، و «من» للاستغراق ، أى ما من قرية ، أى قرية كانت من قرى الكفار . قال الزجاج: أى ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم ، فالمراد بالقرية : أهلها . وإنما قيل : ﴿ **قبل يوم القيامة** ﴾ لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة ، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا . وقيل : الإهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة ، والأول أولى لقوله : ﴿وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : ٥٩] . ﴿ **كان ذلك**﴾ المذكـور من الإهلاك والتعذيب ﴿ **فى الكتاب** ﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿ **مسطورا** ﴾ أى مكتوباً ،

والسطر : الخط ، وهو فى الأصل مصدر ، والسطر بالتحريك مثله . قال جرير :

من شاء بايعته مالى وخلعته ما يكمل التيم فى ديوانهم سطرا

والخلعة بضم الخاء : خيار المال ، والسَّطَر : جمع أسطار ، وجمع السطْر بالسكون أسطر .

﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومك ، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا ، وإن شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية . والمعنى : وما منعنا من إرسال الآيات التى سألوها إلا تكذيب الأولين ،فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه فى عباده ، فالمنع مستعار للترك ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى ما تركنا إرسالها لشىء من الأشياء إلا تكذيب الأولين ، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم فى الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم ، و « أن » الأولى فى محل نصب بإيقاع المنع عليها ، و« أن » الثانية فى محل رفع ، والباء فى ﴿**بالآيات**﴾ زائدة . والحاصل : أن المانع من إرسال الآيات التى اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلى وهو الاستئصال ، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة . وقيل : معنى الآية : إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون ألبتة كما لم يؤمن أولئك ، فيكون إرسال الآيات ضائعا ، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته ، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التى قد بينت فى محل آخر، وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا، استؤصلوا بالعذاب.

وإنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد ؛ لأن إهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** ﴾ أى ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله : ﴿ جعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء : ١٢] . أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازا ، أو أنها جعلتهم ذوى إبصار ، من أبصره جعله بصيرا . وقرئ على صيغة المفعول . وقرئ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال . وقرئ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام ، أى فكذبوها وآتينا ثمود الناقة، ومعنى ﴿ **فظلموا بها** ﴾ : فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا ، أى فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ اختلف فى تفسير ﴿ **بالآيات** ﴾ على وجوه : الأول : أن المراد بها : العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين. الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث : تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب ،

obeikandl.com

ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره . الرابع : آيات القرآن. الخامس : الموت الذريع، والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة ، أى لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب ، فإن لم يخافوا وقع عليهم . والجملة مستأنفة لا محل لها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها ، أى فظلموا بها ولم يخافوا ، والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها إلا تخويفاً . قال ابن قتيبة : وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب العاجل .

ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور ، قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى اذكر إذ قلنا لك ، أى أنهم فى قبضته وتحت قدرته ، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته . وقيل : المراد بالناس : أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ، أى إن الله سيهلكهم . وعبر بالماضى ؛ تنبيها على تحقق وقوعه ؛ وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : المراد : أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهى المذكورة فى صدر السورة ،وسماها رؤيا ، لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرة قالوا: لعلها رؤيا ، وقد قدمنا فى صدر السورة وجها آخر فى تفسير هذه الرؤيا ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى ﷺ أنه أسرى به . وقيل : كانت رؤيا نوم ، وأن النبى ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى : ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : ٢٧] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية ، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة . وقيل : إن هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى أنه رأى بنى مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فقيل : إنما هى الدنيا أعطوها فسرّى عنه ، وفيه ضعف ، فإنه لا فتنة للناس فى هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده ، ويراد بالفتنة : ما حصل من المساءة لرسول الله ﷺ أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا . وقيل : إن الله سبحانه أراه فى المنام مصارع قريش حتى قال : «والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وهو يومئ إلى الأرض ويقول: « هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان » ، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية .

﴿ **والشجرة الملعونة فى القرآن** ﴾ عطف على الرؤيا ، قيل : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . قال جمهور المفسرين : وهى شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها : لعن آكلها كما قال سبحانه : ﴿ إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم ﴾ [الدخان ٤٣ ، ٤٤] . وقال الزجاج : إن العرب تقول لكل

طعام مكروه : ملعون ، ومعنى الفتنة فيها : أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول : ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية . وروى أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقموا . وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم فى داركم ؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وقيل : إن الشجرة الملعونة : هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها ، وهى شجرة الكشوث . وقيل : هى الشيطان . وقيل : اليهود . وقيل : بنو أمية ﴿**ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا** ﴾ أى نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا متجاوزا للحد ، متماديا غاية التمادى ، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة فى الكفر ، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار ، وهو عذاب الاستئصال ، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخاري والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا** ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ كلاهما ، يعنى : الفعلين بالياء التحتية ، وروى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرا . وروى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير . وروى عنه أيضا من وجه آخر بلفظ : هم عيسى وعزير ، والشمس والقمر [(٢)] . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله لى الوسيلة » قالوا : وما الوسيلة ؟ قال: « القرب من الله » ، ثم قرأ : ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب** ﴾ [(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ قال : فى اللوح المحفوظ .

وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧١٤ ، ٤٧١٥) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٠ / ٢٨ ـ ٣٠) والنسائى فى التفسير (٣٠٧ ـ ٣٠٩) وابن جرير ١٥/ ٧٢ والطبرانى (٩٠٧٧) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) ابن جرير ١٥/ ٧٣ .

(٣) الترمذى فى المناقب (٣٦١٢) وقال : « هذا حديث غريب ، إسناده ليس بالقوى » .

(٤) أحمد ١/٢٥٨ والنسائى فى التفسير (٣١٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢٢٥، ٢٢٢٦) وابن جرير ١٥/ ٧٤، وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٧١ ، ٢٧٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٣ : « رجال الروايتين رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على المسند (٢٣٣٣) : «إسناده صحيح » .

أن تستأنى بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال: « لا ، بل أستأنى بهم » ،فأنزل الله: ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات** ﴾ الآية [٤] .

وأخرج أحمد والبيهقى من طريق أخرى عنه نحوه [١] . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ؟ فقال رسول الله ﷺ: « إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم» ، فقالوا : لا نريدها [٢] . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ قال : عصمك من الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : فهم فى قبضته . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا** ﴾ الآية قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ﴿ **والشجرة الملعونة فى القرآن** ﴾ قال : هى شجرة الزقوم [٣] . وأخرج أبو سعيد وأبو يعلى وابن عساكر عن أم هانئ ؛ أن رسول الله ﷺ لما أسرى به أصبح يحدث نفرا من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله إليه : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكاً حتى مات ، فأنزل الله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ [٤] . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا السند ضعيف جدا ، وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبالة [٥] وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جدا .

---

(١) البيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣ .

(٣) أحمد ١/ ٢٢١ والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٨٨) وفى التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣) والترمذي فى التفسير (٣١٣٤) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١١، ٣١٢) وابن جرير ١٥/ ٧٦ والطبرانى (١١٦٤١) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٢ ، ٣٦٣ على شرط البخاري ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٥/ ٧٧ .

(٥) ابن كثير ٤/ ٣٢٤ . وفى المطبوعة : « محمد بن الحسن بن زبان » ،والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير وابن كثير ومن المخطوطة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال : « رأيت ولد الحكم بن أبى العاص على المنابر كأنهم القردة ، فأنزل الله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة** ﴾ » يعنى : الحكم وولده . وأخرج ابن أبى حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت بنى أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء» ، واهتم رسول الله ﷺ لذلك ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن على نحوه مرفوعا وهو مرسل . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل . وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك : « إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن » وفى هذا نكارة ، لقولها : يقول لأبيك وجدك ، ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فرده المشركون ، فقال ناس : قد ردّ وقد كان حدثنا أنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم (١) . وقد تعارضت هذه الأسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح ، والراجح كثرةً وصحةً هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك . وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك فى الرؤيا ، وفى تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم ، فلا اعتبار بغيرهم معهم . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما ذكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفا لهم : يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقما قال الله سبحانه : ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : ٤٣، ٤٤]، وأنزل : ﴿**والشجرة الملعونة فى القرآن** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**والشجرة الملعونة**﴾ قال : ملعونة لأنه قال : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات:٦٥] والشياطين ملعونون .

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ**

(١) ابن جرير ١٥/ ٧٧ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٦ .

لما ذكر سبحانه أن رسول الله ﷺ كان فى بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك ، حتى أن هذه عادة قديمة ، سنها إبليس اللعين ، وأيضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر هاهنا ما يحقق ذلك فقال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه فى سبعة مواضع : فى البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف، وطه، وص ، وقد تقدم تفسيرها مبسوطا فلنقتصر هاهنا على تفسير ما لم يتقدم ذكره من الألفاظ ، فقوله : ﴿**طينا** ﴾ منتصب بنزع الخافض، أى من طين ، أو على الحال . قال الزجاج : المعنى : لمن خلقته طينا ، وهو منصوب على الحال .

﴿ **أرأيتك** ﴾ أى أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ لم فضلته ؟ وقد ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف: ١٢] فحذف هذا للعلم به ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ أى لأستولين عليهم بالإغواء والإضلال . قال الواحدى : أصله من احتناك الجراد الزرع ، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده ، هذا هو الأصل ، ثم سمى الاستيلاء على الشىء وأخذه كله احتناكا. وقيل: معناه : لأسوقنهم حيث شئت ، وأقودنهم حيث أردت ، من قولهم : حنكت الفرس أحنكه حنكاً : إذا جعلت فى فيه الرسن ، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجحفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت

أى استأصلت أموالنا ، واللام فى ﴿ **لئن أخرتن** ﴾ هى الموطئة . وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره ، لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه ، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم ، وأنه يجرى منهم فى مجارى الدم ، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله ، وهم المرادون بقوله: ﴿ **إلا قليلا** ﴾ وفى معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ: ٢٠] فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن. وقيل : إنه استنبط ذلك من قول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : ٣٠] . وقيل : علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات ،أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم ، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما ، كما روى عن الحسن .

﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم** ﴾ أى أطاعك ﴿ **فإن جهنم جزاؤكم** ﴾ أى إبليس ومن أطاعه ﴿ **جزاء موفورا** ﴾ أى وافراً مكملاً ، يقال : وفرته أفره وفراً ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً ، فهو وافر ، فهو مصدر ، ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

ثم كرر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ أى استزعج واستخف من استطعت من بنى آدم ، يقال: أفزه واستفزه ، أى أزعجه واستخفه ، والمعنى : استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله. وقيل : هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة : أجلب من الجلبة والصياح ، أى صح عليهم . وقال الزجاج : أى اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك . فالإجلاب : الجمع ، والباء فى ﴿ **بخيلك** ﴾ زائدة . وقال ابن السكيت : الإجلاب : الإعانة . والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ : « يا خيل الله اركبى » (١) . وتقع على الأفراس ، والرجل بسكون الجيم : جمع راجل كتاجر وتجر ،وصاحب وصحب ،وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة . قال أبو زيد : يقال : رجل ورجل ، بمعنى راجل ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان ، أو المراد : كل راكب وراجل فى معصية الله . ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ أما المشاركة فى الأموال ، فهى : كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذا من غير حق ، أو وضعا فى غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة فى الأولاد : دعوى الولد بغير سبب شرعى ، وتحصيله بالزنى وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، والإساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ، ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها ، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم ، ثم قال : ﴿**وعدهم** ﴾ قال الفراء : قل لهم : لا جنة ولا نار . وقال الزجاج : وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ أى باطلا ، وأصل الغرور: تزيين الخطأ بما يوهم الصواب . وقيل : معناه : وعدهم النصرة على من خالفهم ، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد . وقيل: هى على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه .

﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ يعنى : عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها : المؤمنون لما فى الإضافة من التشريف. وقيل : المراد : جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع : ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] . والمراد بالسلطان : التسلط ﴿ **وكفى بربك وكيلا** ﴾ يتوكلون عليه ، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال إبليس: إن آدم خلق من تراب من طين، خلق ضعيفا وأنى خلقت من نار ، والنار تحرق كل شىء ﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ فصدق ظنه عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ قال: لأستولين. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **لأحتنكن ذريته** ﴾ قال : لأحتوينهم .

---

(١) جزء من حديث فى الحاكم ٢/ ٣٩٦ قاله على كرم الله وجهه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : لأضلنهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **موفورا** ﴾ قال : وافرا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال: صوته : كل داع دعا إلى معصية الله ﴿**وأجلب عليهم بخيلك** ﴾ قال : كل راكب فى معصية الله ﴿ **ورجلك** ﴾ قال: كل راجل فى معصية الله ﴿ **وشاركهم فى الأموال** ﴾ قال : كل مال فى معصية الله ﴿ **والأولاد** ﴾ قال : كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كل خيل تسير فى معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه ، وكل ولد زنا . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: ﴿ **الأموال** ﴾ ما كانوا يحرمون من أنعامهم ﴿ **والأولاد** ﴾ أولاد الزنا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ﴿ **الأموال** ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿ **والأولاد** ﴾ سموا عبد الحارث وعبد شمس .

﴿ **رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر** ﴾ الإزجاء : السوق والإجراء والتسيير ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ [النور : ٤٣] . وقول الشاعر :

يأيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد : ما هذه الصور

وقول الآخر :

عوذا تزجى خلفها أطفالها

والمعنى : أن الله سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح ،والفلك هاهنا جمع. وقد تقدم ، والبحر: هو الماء الكثير عذبًا كان أو ماحًا ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿ **لتبتغوا من فضله**﴾ أى من رزقه الذى تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة، و«من» زائدة أو للتبعيض، وفى هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا به أحدا، وجملة: ﴿ **إنه كان بكم رحيما** ﴾ تعليل لما تقدم أى كان بكم رحيما فهداكم إلى مصالح دنياكم.

﴿ **وإذا مسكم الضر** ﴾ يعنى : خوف الغرق ﴿ **فى البحر ضل من تدعون** ﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ، ولم يوجد لإغاثتكم ماكنتم تدعون من دونه من صنم ، أو جن ، أو ملك ، أو بشر ﴿ **إلا إياه** ﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته وإغاثته ، والاستثناء منقطع. ومعنى الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة ، فأما فى هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ﴿ **فلما نجاكم إلى البر أعرضتم** ﴾ عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿ **وكان الإنسان كفورا** ﴾ أى كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليل لما تقدمه ، والمعنى : أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وفى الرخاء يعرضون عنه .

ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا : ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر** ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم فى البر وإن سلموا من البحر . والخسف : أن تنهار الأرض بالشىء ، يقال: بئر خسيف : إذا انهدم أصلها ، وعين خاسف: أى غائرة حدقتها فى الرأس ، وخسفت عين الماء : إذا غار ماؤها ، وخسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض و﴿**جانب البر**﴾ : ناحية الأرض ، وسماه جانبا ؛ لأنه يصير بعد الخسف جانبا ، وأيضا فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب . وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر ﴿ **أو يرسل عليكم حاصبا** ﴾ قال أبو عبيدة والقتيبى : الحصب : الرمى ، أى ريحاً شديدة حاصبة ، وهى التى ترمى بالحصى الصغار . وقال الزجاج : الحاصب : التراب الذى فيه حصباء ، فالحاصب : ذو الحصباء كاللابن ، والتامر . وقيل : الحاصب : حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال للسحابة التى ترمى بالبرد : حاصب ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ **ثم لا تجدوا لكم وكيلا** ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله . ﴿ **أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى** ﴾ أى فى البحر مرة أخرى بأن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه ، وجاء بفى ولم يقل إلى البحر ؛ للدلالة على استقرارهم فيه ﴿ **فيرسل عليكم قاصفا من الريح** ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة من قصف الشىء يقصفه،أى كسره بشدة ، والقصف: الكسر ، أو هو الريح التى لها قصيف ، أى صوت شديد من قولهم: رعد قاصف ، أى شديد الصوت ﴿ **فيغرقكم** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ورويس ومجاهد : « فتغرقكم » بالتاء الفوقية على أن فاعله الريح ، وقرأ الحسن وقتادة وابن وردان : « فيغرقكم » بالتحتية والتشديد

فى الراء . وقرأ أبو جعفر أيضا : « الرياح » . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فى جميع هذه الأفعال . وقرأ الباقون بالياء التحتية فى جميعها أيضا ، والباء فى ﴿ **بما كفرتم** ﴾ للسببية ، أى بسبب كفركم ﴿ **ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا . قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحاس : وهو من الثأر ، وكذا يقال لك من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع .

﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى آدم، أى كرمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله . وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم، وسائر الحيوانات تأكل بالفم ، وكذا حكاه النحاس . وقيل : ميزهم بالنطق والعقل والتمييز . وقيل : أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقال ابن جرير أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل:بالكلام والخط والفهم ، ولا مانع من حمل التكريم المذكور فى الآية على جميع هذه الأشياء . وأعظم خصال التكريم العقل ، فإن به تسلطوا على سائر الحيوانات،وميزوا بين الحسن والقبيح،وتوسعوا فى المطاعم والمشارب ، وكسبوا الأموال التى تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التى تمنعهم مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التى تقيهم الحرّ والبرد. وقيل : تكريمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم ﴿ **وحملناهم فى البر والبحر** ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم ، حملهم سبحانه فى البر على الدواب ، وفى البحر على السفن . وقيل : حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿ **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بنى آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته، وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه.

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة ، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب فى هذه المسألة هو الذى حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة ، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دلالة بها على ذلك ، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بنى آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلا عليه ، فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال ، والتأكيد بقوله : ﴿ **تفضيلا** ﴾ يدل على عظم هذا

التفضيل وأنه بمكان مكين ، فعلى بنى آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يزجى** ﴾ قال: يجرى ، وأخرجوا عن قتادة قال : يسيرها فى البحر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **حاصبا** ﴾ قال : مطر الحجارة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : حجارة من السماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **قاصفا من الريح** ﴾ قال : التى تغرق. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : القاصف والعاصف فى البحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **قاصفا** ﴾ قال : عاصفا ، وفى قوله : ﴿ **ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ قال : نصيرا .

وأخرج الطبرانى ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « ما من شىء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل : يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال :« ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » [١] . وأخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال: وهو الصحيح [٢] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته [٣] . وأخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : «إن الملائكة قالت : يا رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان » . وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة [٤]. وإسناد الطبرانى هكذا :حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبوغسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم فقال : حدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة . وأخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ فذكره [٥] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ قال : جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم . وأخرج الحاكم فى

(١) الطبرانى فى الصغير ٢/ ٤٧ ولم يروه عن يونس إلا عبيد الله ، تفرد به معمر ، والبيهقى فى الشعب (١٥١) وهو ضعيف ، والخطيب فى تاريخه ٤/ ٤٥ وفيه عبيد الله أيضا وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٦ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف جدا » ، وقال ابن كثير ٤/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ : « وهذا حديث غريب جدا » .

(٢) البيهقى فى الشعب (١٥٢) وإسناد رجاله ثقات .

(٣) المصدر السابق (١٥٠) وإسناده ضعيف .

(٤) ابن جرير ١٥/ ٨٥ .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٤٦ .

التاريخ، والديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الكرامة الأكل بالأصابع » (١).

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧) ﴾.

قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال الزجاج : يعنى : يوم القيامة ، وهو منصوب على معنى اذكر يوم ندعو . وقرئ : « يدعو » بالياء التحتية على البناء للفاعل و« يدعى » على البناء للمفعول ، والباء فى ﴿ **بإمامهم** ﴾ للإلصاق كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال ، والتقدير : ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم ، أى يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده ، والأول أولى . والإمام فى اللغة : كل ما يؤتم به من نبى أو مقدّم فى الدين أو كتاب .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى تدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله ، أى يدعى كل إنسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ فأما من (٢) أوتى كتابه ﴾ الآية [الحاقة : ١٩]، وقال ابن زيد: الإمام: هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الإنجيل بالإنجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن . وقال مجاهد وقتادة : إمامهم : نبيهم ، فيقال : هاتوا متبعى إبراهيم ، هاتوا متبعى موسى ، هاتوا متبعى عيسى ، هاتوا متبعى محمد ، وبه قال الزجاج. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : المراد بالإمام: إمام عصرهم ، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه . وقال الحسن وأبو العالية : المراد ﴿**بإمامهم** ﴾ : أعمالهم ، فيقال مثلا : أين المجاهدون ، أين الصابرون ، أين الصائمون ، أين المصلون ؟ ونحو ذلك . وروى عن ابن عباس وأبى هريرة . وقال أبو عبيدة : المراد ﴿ **بإمامهم** ﴾ : صاحب مذهبهم ، فيقال مثلا : أين التابعون للعالم فلان ابن فلان . وهذا من البعد بمكان . وقال محمد بن كعب : ﴿ **بإمامهم** ﴾ : بأمهاتهم ، على أن

---

(١) الديلمى فى الفردوس (٧٢٢٣) .

(٢) فى المخطوطة : « فمن » والصواب ما أثبتناه .

إمام جمع أم كخف وخفاف ، وهذا بعيد جدا . وقيل : الإمام: هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة ، أوقبيح كأضدادها ، فالداعى إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ، ذكر معناه الرازى فى تفسيره .

﴿ **فمن أوتى كتابه بيمينه** ﴾ من أولئك المدعوين ، وتخصيص اليمين بالذكر ؛ للتشريف والتبشير ﴿ **فأولئك**﴾ الإشارة إلى « من » باعتبار معناه . قيل : ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل ، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿ **يقرؤون كتابهم** ﴾ الذى أوتوه ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو القشرة التى فى شق النواة ، أو هو عبارة عن أقل شىء ، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ، ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ أى من كان من المدعوين فى هذه الدنيا أعمى ، أى فاقد البصيرة . قال النيسابورى : لا خلاف أن المراد بهذا العمى : عمى القلب ، وأما قوله : ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ فيحتمل أن يراد به : عمى البصر، كقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ [طه : ١٢٤ ، ١٢٥] . وفى هذا زيادة العقوبة . ويحتمل أن يراد : عمى القلب . وقيل : المراد بالآخرة : عمل الآخرة ، أى فهو فى عمل ، أو فى أمر الآخرة أعمى . وقيل: المراد: من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل: من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله فهو فى الآخرة أعمى . وقد قيل : إن قوله : ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ أفعل تفضيل،أى أشد عمى ، وهذا مبنى على أنه من عمى القلب ، إذ لا يقال ذلك فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال : ما أعماه ، كما لا يقال : ماأيداه . وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف . وقد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ما أسود شعره ، ومن ذلك قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم لؤما وأبيضهم سربال طباخ

والبحث مستوفى فى النحو . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف : « أعمى » بالإمالة فى الموضعين ، وقرأهما أبوعمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة ، وأمال أبو عبيد الأول دون الثانى ﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ يعنى : أن هذا أضل سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية ، بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال .

ثم لما عدد سبحانه فى الآيات المتقدمة أقسام النعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال: ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك** ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير شأن محذوف ، واللام : هى الفارقة بينها وبين

النافية ، والمعنى : وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين . وأصل الفتنة : الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ، ثم استعمل فى كل من أزال الشىء عن حده وجهته ، وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿ **عن الذى أوحينا إليك** ﴾ من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد ﴿**لتفترى علينا غيره** ﴾ لتتقول علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿ **وإذا لاتخذوك خليلا** ﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا لهم، أى والوك وصافوك ، مأخوذ من الخلة بفتح الخاء .

﴿ **ولولا أن ثبتناك** ﴾ على الحق وعصمناك عن موافقتهم ﴿ **لقد كدت تركن إليهم** ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل ، والركون : هو الميل اليسير ، ولهذا قال : ﴿ **شيئا قليلا** ﴾ لكن أدركته ﷺ العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم ، فضلا عن نفس الركون . وهذا دليل على أنه ﷺ ما هم بإجابتهم ، ذكر معناه القشيرى وغيره . وقيل : المعنى: وإن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم ، فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا كما تقول للرجل: كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوى .

ثم توعده سبحانه فى ذلك أشد الوعيد فقال: ﴿ **إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات** ﴾ أى لو قاربت أن تركن إليهم، أى مثلى ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين ، والمعنى : عذاباً ضعفاً فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ، أى مضاعفا ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت ، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : ٣٠] . وضعف الشىء : مثلاه ، وقد يكون الضعف النصيب كقوله : ﴿ لكل ضعف ﴾ [الأعراف :٣٨] . أى نصيب . قال الرازى : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة ﴿ **ثم لا تجد لك علينا نصيرا** ﴾ ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب. قال النيسابورى : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها ، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة .

﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ أى وإن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها ، ولكنه لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به . وقيل : إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزا ﴿ **وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا** ﴾ معطوف على ﴿ **ليستفزونك** ﴾ أى لا يبقون بعد إخراجك إلا زمنا قليلا ، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعا . وقرأ عطاء بن أبى رباح : «لا يلبثوا » بتشديد الباء الموحدة. وقرئ : « لا يلبثوا » بالنصب على إعمال « إذا » ، على أن الجملة معطوف على جملة : ﴿ **وإن كادوا** ﴾ لا على الخبر فقط . وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر

وأبو عمرو : «خلفك » ومعناه : بعدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى: ﴿**خلافك**﴾ ومعناه أيضا : بعدك . وقال ابن الأنبارى : ﴿ **خلافك** ﴾ بمعنى : مخالفتك ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة: ٨١]. ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد ، قول الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيراً

يقال : شطبت المرأة الجريد : إذا شققته لتعمل منه الحصير . قال أبو عبيدة : ثم تلقيه الشاطبة إلى المثقبة . ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا** ﴾ ﴿ **سنة** ﴾ منتصبة على المصدرية ، أى سن الله سنة. وقال الفراء : أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقيل : المعنى : سننا سنة من قد أرسلنا . قال الزجاج : يقول : إن سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ **ولا تجد لسننا تحويلا** ﴾ أى ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : إمام هدى وإمام ضلالة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن أنس فى الآية قال : نبيهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب أعمالهم . وأخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال : يدعى كل قوم بإمام زمانهم ، وكتاب ربهم وسنة نبيهم . وأخرج الترمذى وحسنه، والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعا ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لولؤ يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا ، حتى يأتيهم فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ، ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، قال : فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا» . قال البزار بعد إخراجه : لا يروى إلا من هذا الوجه [(١)] .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ يقول : من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿ **فهو** ﴾ عما وصفت له ﴿ **فى الآخرة** ﴾ ولم يره

(١) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٣٦) وقال: « حسن غريب » وابن حبان (٧٣٠٥) وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

﴿ **أعمى وأضل سبيلا** ﴾ يقول : أبعد حجة . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا يقول : من عمى عن قدرة الله فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل ابن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم ، فأنزل الله: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **نصيرا** ﴾. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن ياذان عن جابر بن عبد الله مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « وما على لو فعلت والله يعلم منى خلافه ؟ » فأنزل الله: ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير؛ أن قريشا أتوا النبى ﷺ فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم، فأوحى الله إليه : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: أنزل الله : ﴿والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] . فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [النجم : ١٩] فألقى عليه الشيطان : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى، فقرأ النبى ﷺ ما بقى من السورة وسجد، فأنزل الله : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك** ﴾ الآية ، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل الله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ﴾ الآية [الحج : ٥٢]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن ثقيفا قالوا للنبى ﷺ : أجلنا سنة حتى يُهدى لآلهتنا ، فإذا قبضنا الذى يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم ، فنزلت ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك**﴾ الآية [2].

وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **ضعف الحياة وضعف الممات** ﴾ يعنى : ضعف عذاب الدنيا والآخرة . وأخرج البيهقى عن الحسن فى الآية قال : هو عذاب القبر . وأخرج أيضا عن عطاء مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبى ﷺ : كانت الأنبياء تسكن الشام ، فمالك والمدينة ؟ فهم أن يشخص، فأنزل الله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض** ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن حضرمى أنه بلغه أن بعض اليهود . . . فذكر نحوه[3]. وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم؛ أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن كنت نبيا فالحق بالشام ، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق النبى ﷺ ما قالوا ، فتحرى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ

(١، ٢) ابن جرير ١٥ / ٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ١٥ / ٨٩ ، ٩٠ .

تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **تحويلا** ﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وقال له جبريل : سل ربك ، فإن لكل نبى مسألة فقال : « ما تأمرنى أن أسأل ؟ » قال: ﴿ **قل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا**﴾ فهؤلاء نزلن عليه فى رجعته من تبوك (١) . قال ابن كثير : وفى هذا الإسناد نظر ، والظاهر أنه ليس بصحيح ، فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالا لقوله : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة : ١٢٣] . وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض** ﴾ قال : هم أهل مكة بإخراج النبى ﷺ من مكة ، وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله فى الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا** ﴾ قال : يعنى بالقليل : يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده .

﴿ **أَقِمِ الصَّلاَةَ لدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)** ﴾.

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات ، وهى الصلاة ، فقال: ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس** ﴾ . وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها : الصلوات المفروضة .وقد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين: أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبى وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبوجعفر الباقر، واختاره ابن جرير. والقول الثانى : أنه غروب الشمس ، قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الفراء: دلوك الشمس : من لدن زوالها إلى عروبها . قال الأزهرى : معنى الدلوك فى كلام العرب :

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ . (٢) ابن كثير ٤/ ٣٣٢ .

الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دالكة . وقيل لها إذا أفلت : دالكة ، لأنها فى الحالتين زائلة . قال : والقول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، والمعنى : أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ هذه خمس صلوات. وقال أبو عبيد : دلوكها : غروبها ، ودلكت براح: يعنى الشمس ، أى غابت، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر :

هذا مقام قدمى رباح ذبَّبَ حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

مصابيح ليست باللواتى تقودها نجـــوم ، ولا بالآفـلات الـدوالك

أى الغوارب ، وغسق الليل : اجتماع الظلمة . قال الفراء والزجاج : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أقبل بظلامه . قال أبوعبيد : الغسق : سواد الليل . قال قيس بن الرقيات :

إن هـذا الليل قد غسقا واشتكيت الهـم والأرقـا

وقيل : غسق الليل : مغيب الشفق ، ومنه قول زهير :

ظلت تجود يداها وهى لاهية حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال: غسقت: إذا سالت . وحكى الفراء غسق الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجى وأدجى، وغبش وأغبش ، وقد استدل بهذه الغاية ، أعنى قوله : ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ ، من قال : إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ، روى ذلك عن الأوزاعى وأبى حنيفة وجوزه مالك والشافعى فى حال الضرورة . وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى تعيين أوقات الصلوات ، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك . قوله : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ انتصاب ﴿ **قرآن** ﴾ لكونه معطوفا على ﴿ **الصلاة** ﴾ أى وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء. وقال الزجاج والبصريون : انتصابه على الإغراء ، أى فعليك قرآن الفجر . قال المفسرون : المراد بقرآن الفجر : صلاة الصبح . قال الزجاج : وفى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» (١) ، وفى بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن، « وقرآن معها» (٢) . وورد ما يدل على وجوب

---

(١) مسلم فى الصلاة (٣٤/٣٩٤ ــ٣٧) وأبو داود فى الصلاة (٨٢٢ ، ٨٢٣) والترمذى فى الصلاة (٢٤٧) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الصلاة (٨٣٧) وكلهم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أبو داود فى الصلاة (٨١٨) والترمذى فى الصلاة (٢٣٨) وقال : « حديث حسن ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه » .

الفاتحة فى كل ركعة ، وقد حررته فى مؤلفاتى تحريراً مجودا . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهودا**﴾ أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح ، وبذلك قال جمهور المفسرين. ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾: « من » للتبعيض، وانتصابه على الظرفية بمضمر، أى قم بعض الليل فتهجد به، والضمير المجرور راجع إلى القرآن، وما قيل من أنه منتصب على الإغراء ، والتقدير : عليك بعض الليل، فبعيد جدا . والتهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة وابن الأعرابى : هو من الأضداد ، لأنه يقال: هجد الرجل : إذا نام ، وهجد: إذا سهر ، فمن استعماله فى السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود

يعنى : منتبهين ، ومن استعماله فى النوم قول الآخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات (١) النوال تجود

يعنى : نياما . وقال الأزهرى : الهجود فى الأصل : هو النوم بالليل ، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرج، أى تجنب الإثم والحرج ، فالمتهجد: من تجنب الهجود ، فقام بالليل . وروى عن الأزهرى أيضا أنه قال : المتهجد : القائم إلى الصلاة من النوم ، هكذا حكى عنه الواحدى فقيد التهجد بالقيام من النوم، وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود ، فقالوا: التهجد بعد النوم . قال الليث : تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿ **نافلة لك** ﴾ معنى النافلة فى اللغة : الزيادة على الأصل ، فالمعنى : أنها للنبى ﷺ نافلة زائدة على الفرائض . والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر. وقيل :المراد بالنافلة هنا : أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه ﷺ ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة . وقيل: كانت صلاة الليل فريضة فى حقه ﷺ ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا ، وعلى هذا يحمل ما ورد فى الحديث أنها عليه فريضة ولأمته تطوع . قال الواحدى : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبى ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة: لكثرة ذنوبنا، إنما نعمل لكفارتها، قال : وهو قول جميع المفسرين. والحاصل . أن الخطاب فى هذه الآية وإن كان خاصا بالنبى ﷺ فى قوله : ﴿ **أقم الصلاة** ﴾ فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب فى صلاة الليل ، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ قد ذكرنا فى مواضع أن ﴿ **عسى** ﴾ من الكريم إطماع واجب الوقوع، وانتصاب ﴿ **مقاما** ﴾ على الظرفية بإضمار فعل ، أو بتضمين البعث معنى الإقامة ، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال ، أى يبعثك ذا مقام محمود . ومعنى كون المقام محمودا : أنه يحمده كل من علم به .

(١) العلات : هى ما يتعلل به .

وقد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال : الأول : أنه المقام الذى يقومه النبى ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه ، وهذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل . قال الواحدى: وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة . القول الثانى : أن المقام المحمود: إعطاء النبى ﷺ لواء الحمد يوم القيامة . ويمكن أن يقال : إن هذا لا ينافى القول الأول ، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد . القول الثالث : أن المقام المحمود : هو أن الله سبحانه يجلس محمدا ﷺ معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد فى ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث . قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة يقول بالتأويل ، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا ، والثانى فى تأويل : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢,٢٣] قال: معناه : تنتظر الثواب ، وليس من النظر . انتهى ، وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة . القول الرابع : أنه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به فى التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة ، فالمصير إليها متعين ، وليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى قوله : « وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد » : أنه عام فى كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره فى ذبح البقرة، ولهذا قال هنا. وقيل : المراد : الشفاعة، وهى نوع واحد مما يتناوله ، يعنى : لفظ المقام ، والفرق بين العموم البدلى والعموم الشمولى معروف ، فلا نطيل بذكره .

﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ وقرأ الجمهور :﴿ **مدخل صدق**﴾ و﴿ **مخرج صدق** ﴾ بضم الميمين. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم بفتحهما ، وهما مصدران بمعنى : الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود، أى إدخالا يستأهل أن يسمى إدخالا ، ولا يرى فيه ما يكره . قال الواحدى : وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما ، وكل شىء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

وقد اختلف المفسرون فى معنى الآية ، فقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير . وقيل : المعنى : أمتنى إماتة صدق ، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق. وقيل : المعنى: أدخلنى فيما أمرتنى به ، وأخرجنى مما نهيتنى عنه . وقيل : إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول . وقيل : المراد إدخال عزٍ وإخراج نصر . وقيل : المعنى : أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق ،

وأخرجنى منه إذا أمتنى مخرج صدق. وقيل: أدخلنى القبر عند الموت مدخل صدق ، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق . وقيل : أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق ، وأخرجنى بالصدق . وقيل : الآية عامة فى كل ما تتناوله من الأمور فهى دعاء ، ومعناها : رب أصلح لى وردى فى كل الأمور وصدرى عنها.

﴿ **واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ أى حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى . وقيل : اجعل لى من لدنك ملكا وعزا قويا وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا . وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [الحديد : ٢٥] . وفى الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع . انتهى(١).

﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل** ﴾ المراد بالحق: الإسلام. وقيل : القرآن. وقيل : الجهاد . ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان ، والمراد بالباطل : الشرك . وقيل : الشيطان ، ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل . ومعنى زهق : بطل واضمحل ، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿ **إن الباطل كان زهوقا** ﴾ أى إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائما .

﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ننزل** ﴾ بالنون وقرأ أبو عمرو بالتخفيف . وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف ، ورواها المروزى عن حفص ، و«من » لابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس. وقيل : للتبعيض ، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لاشفاء فيه ، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله. واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على القولين: الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . القول الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك ، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز ، أو من باب حمل المشترك على معنييه .

ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما فى تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا

(١) ابن كثير ٤/ ٣٤٢ .

يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ [فصلت : ٤٤] . ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين، ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال : ﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾ أى ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿ **إلا خسارا** ﴾ أى هلاكاً لأن سماع القرآن يغيظهم ويخنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون. وقيل: الخسار: النقص ،كقوله : ﴿ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ [التوبة : ١٢٥] .

ثم نبه سبحانه على فضح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان**﴾ أى على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿ **أعرض**﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ **ونأى بجانبه** ﴾ النأى: البعد ، والباء للتعدية أو للمصاحبة ، وهو تأكيد للإعراض ؛ لأن الإعراض عن الشىء هو أن يوليه عرض وجهه ، أى ناحيته ، والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا : الإعراض عن الدعاء والابتهال الذى كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ، ويراد بالنأى بجانبه : التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم . وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان وأبوجعفر : « ناء » مثل باع بتأخير الهمزة على القلب ، وقرأ حمزة : « ناءى » بإمالة الفتحتين ووافقه الكسائى ، وأمال شعبة والسوسى الهمزة فقط . وقرأ الباقون بالفتح فيهما ﴿ **وإذا مسه الشر** ﴾ من مرض أو فقر ﴿ **كان يؤوسا** ﴾ شديد اليأس من رحمة الله ، والمعنى : أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى ، وظفر بالمقصود، نسى المعبود، وإن فاته شىء من ذلك استولى عليه الأسف،وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافى ما فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : ٥١] ونظائره ، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية ، ولا يبعد أن يقال : لا منافاة بين الآيتين ، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه، كثير الدعاء بلسانه .

﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ الشاكلة قال الفراء : الطريقة . وقيل : الناحية . وقيل : الطبيعة . وقيل : الدين . وقيل: النية . وقيل : الجبلة ، وهى مأخوذة من الشكل ، يقال : لست على شكلى ولا على شاكلتى ، والشكل : هو المثل والنظير . والمعنى : إن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن ﴿ **فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا** ﴾ لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الذى يميز بين المؤمن الذى لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة ، وبين الكافر الذى شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم .

ثم لما انجر الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال : ﴿**ويسألونك عن الروح** ﴾ قد اختلف الناس فى الروح المسؤول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذى تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين . قال الفراء :

الروح : الذى يعيش به الإنسان، لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ، ولم يعط علمه أحدا من عباده فقال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ أى إنكم لا تعلمونه . وقيل : الروح المسؤول عنه: جبريل . وقيل: عيسى . وقيل : القرآن . وقيل : ملك من الملائكة عظيم الخلق. وقيل : خلق كخلق بنى آدم. وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة فى إيراده ، والظاهر : القول الأول، وسيأتى ذكر سبب نزول هذه الآية ، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح . ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ؛ لأن معرفة حقيقة الشىء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله . ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ : « من » بيانية ، والأمر: الشأن ، والإضافة للاختصاص ، أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التى لم يعلم بها عباده. وقيل: معنى ﴿ **من أمر ربى** ﴾: من وحيه وكلامه لا من كلام البشر .

وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين ولا دنيا . وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع ، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلا عن أممهم المقتدين بهم ، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذى لم تبلغه ولا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ، ولم يستأثر بعلمه . ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه : ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ أى أن علمكم الذى علمكم الله ، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتى حظا من العلم وافرا ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر فى منقاره من البحر ، كما فى حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ﴿ **دلوك الشمس** ﴾ : غروبها ، تقول العرب إذا غربت الشمس : دلكت الشمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على قال : دلوكها : غروبها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : ﴿ **لدلوك الشمس** ﴾ : لزوال الشمس وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « دلوك الشمس زوالها » وضعف السيوطى إسناده (١) ، وأخرجه مالك فى الموطأ وعبد الرزاق والفريابى وابن

(١) السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ١٩٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤ : « رواه البزار وفيه عمر بن قيس المعروف بسندل ، وهو متروك » .

obeikandi.com

أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر من قوله . وأخرج عبد الرزاق عنه قال : دلوك الشمس : زياغها بعد نصف النهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس قال : دلوكها : زوالها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **لدلوك الشمس** ﴾ قال : إذا فاء الفيء . وأخرج ابن جرير عن أبى مسعود وعقبة بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر » (١) . وأخرج ابن جرير عن أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس** ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه ، مما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبى ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس» . وفى إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنبرى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ قال: إلى العشاء الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ **غسق الليل** ﴾ اجتماع الليل وظلمته . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **غسق الليل** ﴾ : بدو الليل . وأخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : دلوك الشمس : إذا زالت الشمس عن بطن السماء . وغسق الليل : غروب الشمس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ قال : صلاة الصبح . وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿**وقرآن الفجرإن قرآن الفجركان مشهودا** ﴾ قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها » (٤) ، وهو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ: « تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿**وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا**﴾ (٥). وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود موقوفاً نحوه. وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ قال :« تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » (٦) .

(١ـ٣) ابن جرير ١٥/ ٩٣ .

(٤) أحمد ٢/ ٤٧٤ والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) وقال: « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١٣) وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠) وابن جرير ١٥/ ٩٤ وصححه الحاكم ١/ ٢١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الشعب (٢٥٧٦) .

(٥) البخارى فى الأذان (٦٤٨) وفى التفسير (٤٧١٧) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦٤٩/ ٢٤٦).

(٦) ابن جرير ١٥/ ٩٤ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نافلة لك** ﴾ يعنى: خاصة للنبى ﷺ ، أمر بقيام الليل وكتب عليه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ، أن النبى ﷺ قال : « ثلاث هن على فرائض وهن لكم سنة : الوتر: والسواك ،وقيام الليل » (١). وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله: ﴿ **نافلة لك** ﴾ قال : كانت للنبى ﷺ نافلة ولكم فضيلة ، وفى لفظ : إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا** ﴾ وسئل عنه ، قال : « هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى»(٢).

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى حلة خضراء،ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود» (٣). وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان، اشفع ، يا فلان ، اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا . وأخرج عنه نحوه مرفوعاً (٤) ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات وغيرها . وأخرج الطبرانى فى قوله : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ قال : يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته ، فذلك المقام المحمود (٥) . وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ ، قال : «يجلسنى معه على السرير » (٦) وينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين .

وأخرج أحمد، والترمذى وصححه، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم . والبيهقى والضياء فى المختارة ، عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ (٧) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى

---

(١) البيهقى ٧/ ٣٩ .

(٢) أحمد ٢/ ٤٤١ ، ٥٢٨ والترمذى فى التفسير (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١٥ / ٩٨ والبيهقى فى الشعب (٢٩٥) .

(٣) أحمد ٣/ ٤٥٦ وابن جرير ١٥/ ٩٨ وابن حبان (٦٤٤٥) وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٣ ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٧١٨) والنسائى فى التفسير (٣١٥) .

(٥) الطبرانى (١٢٤٧٤) عن ابن عباس ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤ : « وفيه ابن لهيعة ، وهو ضعيف إذا لم يتابع . وعطاء بن دينار قيل : لم يسمع من سعيد بن المسيب » .

(٦) الديلمى فى الفردوس (٤١٥٩) .

(٧) أحمد ١/ ٢٢٣ والترمذى فى التفسير (٣١٣٩) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ١٥/ ١٠٠ وصححه الحاكم ٣/ ٣ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥١٦ .

الدلائل عن قتادة فى قوله : ﴿ **وقل رب أدخلنى** ﴾ الآية : قال : أخرجه الله من مكة مخرج صدق ، وأدخله المدينة مدخل صدق . قال: وعلم نبى الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولإقامة كتاب الله ، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، وأكل شديدهم ضعيفهم [١] . وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال : والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ ، و﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾[٢] [سبأ : ٤٩]. وفى الباب أحاديث.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**ونأى بجانبه** ﴾ قال : تباعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كان يؤوسا** ﴾ قال : قنوطا ، وفى قوله : ﴿ **كل يعمل على شاكلته** ﴾ قال : على ناحيته . وأخرج هناد وابن المنذر عن الحسن قال : على شاكلته : على نيته . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى خرب المدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ فما زال متكئاً على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [٣] . وأخرج أحمد ،والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن حبان،وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ،وابن مردويه وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، قالوا :سلوه عن الروح ، فنزلت: ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ قالوا : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، فأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ [٤] [الكهف : ١٠٩] وفى الباب أحاديث وآثار .

---

(١) الحاكم ٣/٣ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥١٧ .

(٢) البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١/ ٨٧ ، ٨٧ مكرر) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١٧ ، ٤٤٨) .

(٣) البخارى فى العلم (١٢٥) وفى التفسير (٤٧٢١) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٧٩٤ / ٣٢ ، ٣٣) والترمذى فى التفسير (٣١٤١) والنسائى فى التفسير (٣١٩).

(٤) أحمد ١/ ٢٥٥ والترمذى فى التفسير (٣١٤٠) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٣٣٤) وابن حبان (٩٩) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٤٦ .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال : ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك** ﴾ واللام هى الموطئة ، و ﴿ **لنذهبن** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط . قال الزجاج : معناه : لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر . انتهى . وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ﴿ **ثم لا تجد لك به** ﴾ أى بالقرآن ﴿ **علينا وكيلا** ﴾ أى لا تجد من يتوكل علينا فى رد شىء منه بعد أن ذهبنا به . والاستثناء بقوله : ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ إن كان متصلا فمعناه : إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به ، وإن كان منقطعا فمعناه: لكن لا يشاء ذلك رحمة من ربك ، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ﴿ **إن فضله كان عليك كبيرا** ﴾ حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه .

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن** ﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿ **لا يأتون بمثله** ﴾ أظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور ، لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللإشعار بأن المراد نفى المثل على أى صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة ، وساد مسد جواب الشرط ، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدى لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال : ﴿**ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ أى عوناً ونصيراً ، وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يأتون بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال وقد تقدم وجه إعجاز القرآن فى أوائل سورة البقرة ، وفى هذه الآية رد لما قاله الكفار : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] ، وإكذاب لهم .

ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿ **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى رددنا القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ يعنى : من أهل مكة ، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم ، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ، وأظهر فى مقام الإضمار حيث قال : ﴿ **فأبى أكثر الناس** ﴾ توكيدا أو توضيحا ، ولما كان ﴿ **أبى** ﴾ مؤولا بالنفى ، أى ما قبل ، أو لم يرض ، صح الاستثناء منه قوله : ﴿ **إلا كفورا** ﴾ .

﴿ **وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر ابن الحارث ، ثم علقوا نفى إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا : ﴿ **حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم ﴿**حتى تفجر** ﴾ مخففا ، مثل : تقتل . وقرأ الباقون بالتشديد ، ولم يختلفوا فى ﴿ **فتفجر الأنهار** ﴾ أنها مشددة ، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهو جمع وأجيب عنه: بأن الينبوع وإن كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع ، فإن الينبوع العيون التى لا تنضب . ويرد بأن الينبوع : عين الماء والجمع : الينابيع ، وإنما يقال للعين ينبوع: إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب ، من عب الماء .

﴿ **أو تكون لك جنة** ﴾ أى بستان تستر أشجاره أرضه . والمعنى : هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿ **من نخيل وعنب فتفجر الأنهار** ﴾ أى تجريها بقوة ﴿ **خلالها تفجيرا** ﴾ أى وسطها تفجيرا كثيرا ﴿ **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** ﴾ قرأ مجاهد : « أو تسقط » مسندا إلى السماء . وقرأ من عداه : ﴿ **أو تسقط** ﴾ على الخطاب، أى أو تسقط أنت يا محمد السماء . والكسف بفتح السين جمع كسفة ، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم ، والكسفة . القطعة . وقرأ الباقون :« كسفا » بإسكان السين . قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحدا ومن قرأ بفتحها جعله جمعا . قال المهدوى : ويجور أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة ، ويجوز أن يكون مصدرا . قال الجوهرى : الكسفة : القطعة من الشىء ، يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع : كِسْفٌ و كِسَفٌ ويقال : الكسف والكسفة واحد ، وانتصاب ﴿ **كسفا** ﴾ على الحال ، والكاف فى ﴿ **كما زعمت**﴾ فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف ، أى إسقاطا مماثلا لما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ﴾ [سبأ : ٩]. قال أبو على : الكسف بالسكون : الشىء المقطوع ، كالطحن للمطحون ، واشتقاقه على ما قال أبوزيد من كسفت الثوب كسفا: إذا قطعته . وقال الزجاج : من كسفت الشىء : إذا غطيته ، كأنه قيل . أوتسقطها طبقا علينا ﴿ **أو تأتى بالله والملائكة قبيلا** ﴾ . اختلف المفسرون فى معنى ﴿**قبيلا** ﴾ : فقيل : معناه : معاينة ، قاله قتادة وابن جريج ، واختاره أبو على الفارسى فقال :

إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير. وقيل: معناه : كفيلا ، قاله الضحاك. وقيل : شهيدا ، قاله مقاتل . وقيل : هو جمع القبيلة ، أى تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ، قاله مجاهد وعطاء . وقيل : ضمناً . وقيل : مقابلا كالعشير والمعاشر .

﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ أى من ذهب ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأصله: الزينة ، والمزخرف : المزين ، وزخارف الماء : طرائقه . وقال الزجاج : هو الزينة ، فرجع إلى الأصل معنى الزخرف ، وهو بعيد ؛ لأنه يصير المعنى : أو يكون لك بيت من زينة ﴿ **أو ترقى فى السماء** ﴾ أى تصعد فى معارجها ، يقال : رقيت فى السلم : إذا صعدت وارتقيت . مثله : ﴿**ولن نؤمن لرقيك** ﴾ أى لأجل رقيك ، وهو مصدر نحو : مضى يمضى مضيا ، وهوى يهوى هويا ﴿ **حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾ أى حتى تنزل علينا من السماء كتابًا يصدقك ويدل على نبوتك نقرؤه جميعا ، أو يقرؤه كل واحد منا . وقيل : معناه : كتابا من الله إلى كل واحد منا فى قوله : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ [المدثر : ٥٢] . فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم ، والتنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال : ﴿ **قل سبحان ربى** ﴾ أى تنزيهًا لله عن أن يعجز عن شىء . وقرأ أهل مكة والشام : «قال سبحان ربى » يعنى : النبى ﷺ ﴿ **هل كنت إلا بشرا** ﴾ من البشر لا ملكا حتى أصعد السماء ﴿ **رسولا** ﴾ مأمورا من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شىء منها ؟ وإن أردتم أنى أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدى، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك ، لأن بها يتبين صدقه ، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة ، وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على ربى بما ليس بضرورى ، ولا دعت إليه حاجة ، ولو لزمتنى الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند فى كل وقت اقتراحات ، وطلب لنفسه إظهار آيات ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، وتنزه عن تعنتاتهم، وتقدس عن اقتراحاتهم.

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : إن هذا القرآن سيرفع ، قيل : كيف يرفع وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال : يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا يترك منه آية فى قلب ولامصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء، ثم قرأ : ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك** ﴾ وقد روى عنه هذا من طرق [1]. وأخرج ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله

---

(١) ابن أبى شيبة (١٠٢٤٢ ، ١٩٤٣١) وابن جرير ١٥/ ١٠٦ والطبرانى (٨٦٩٨ ، ٨٦٩٩ ، ٨٧٠٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٤، ٥٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير شداد ابن معقل وهو ثقة » .

ابن عمرو نحوه موقوفا . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا. وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة موقوفا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ محمود بن شيحان ونعيمان بن آصى وبحرى بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذى جئت به أحق من عند اللّه ، فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة ؟ فقال لهم : « والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله » ، قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ الآية [١] .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ؛ أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار وأبا البخترى أخا بنى أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه ، وذكر حديثا طويلا يشتمل على ما سألوه عنه وتعنتوه ، وأن ذلك كان سبب نزول قوله : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بشرا رسولا** ﴾[٢]. وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق حدثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره ، ففيه هذا الرجل المجهول . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿**وقالوا لن نؤمن لك** ﴾ قال : نزلت فى أخى أم سلمة عبد الله بن أبى أمية [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ينبوعا** ﴾ قال : عيونا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : الينبوع : هو النهر الذى يجرى من العين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو تكون لك جنة** ﴾ يقول : ضيعة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **كسفا** ﴾ قال : قطعا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **قبيلا** ﴾ قال : عيانا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **من زخرف** ﴾ قال : من ذهب . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وأبو نعيم عن مجاهد قال : لم أكن أحس ما الزخرف ؟ حتى سمعتها فى قراءة عبد الله : « أو يكون لك بيت من ذهب » .

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ ، ٢١٢ وابن جرير ١٥/ ١٠٦ ، ١٠٧ . « وفى هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة فالله أعلم » . عن ابن كثير ٤/ ٣٤٨ .

(٢) ابن إسحاق ١/ ٣٢٤ وابن جرير ١٥/ ١١٠ .

(٣) ابن جرير ١٥/ ١١١ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **كتابا نقرؤه** ﴾ قال : من رب العالمين إلى فلان بن فلان . يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها .

﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً(١٠٠)** ﴾ .

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى قد تكرر فى الكتاب العزيز التعرض لإيرادها وردها فى غير موضع فقال : ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا** ﴾ المراد : الناس على العموم . وقيل : المراد : أهل مكة على الخصوص ، أى ما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ وهو المفعول الثانى لمنع ، ومعنى ﴿ **إذ جاءهم الهدى** ﴾ : أنه جاءهم الوحى من الله سبحانه على رسوله ، وبين ذلك لهم وأرشدهم إليه ، وهو ظرف لـ ﴿ **منع** ﴾ أو ﴿ **يؤمنوا** ﴾ أى ما منعهم وقت مجىء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ أى ما منعهم إلا قولهم ، فهو فى محل رفع على أنه فاعل منع ، والهمزة فى ﴿ **أبعث الله بشرا رسولا** ﴾ للإنكار منهم أن يكون الرسول بشراً ، والمعنى : أن هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر، هو الذى منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول، وعبر عنه بالقول ؛ للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال : ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين** ﴾ أى لو وجد وثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر، ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها . قال الزجاج : ﴿ **مطمئنين** ﴾ : مستوطنين فى الأرض ، ومعنى الطمأنينة : السكون ، فالمراد هاهنا : المقام والاستيطان ، فإنه يقال : سكن البلد فلان : إذا أقام فيها وإن كان ماشيا متقلبا فى حاجاته ﴿ **لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ حتى يكون من جنسهم ، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغى أن تكون من جنس المرسل إليهم ، فكأنه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: الأول : كون سكان الأرض ملائكة . والثانى : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها ، وسمعوا من أهلها

ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون فى بعثة الملائكة إليهم فائدة . وانتصاب ﴿ **بشرا** ﴾ و﴿**ملكا**﴾ على أنهما مفعولان للفعلين ، و﴿ **رسولا** ﴾ فى الموضعين وصف لهما . وجوز صاحب الكشاف أن يكونا حالين فى الموضعين من ﴿ **رسولا**﴾ فيهما وقواه صاحب الكشاف[1]، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية فى الموضع الأول ، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك .

ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد ، فقال : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم** ﴾ أى قل لهم يامحمد من جهتك : كفى بالله وحده شهيدا على إبلاغى إليكم ما أمرنى به من أمور الرسالة ، وقال : ﴿ **بينى وبينكم** ﴾ ولم يقل : بيننا ؛ تحقيقا للمفارقة الكلية . وقيل : إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبى شهادة من الله له على الصدق ، ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله : ﴿ **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ أى عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها بصيرا بما كان منها وما يكون .

ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال: ﴿ **ومن يهد الله فهو المهتدى**﴾ أى من يرد الله هدايته فهو المهتدى إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ **ومن يضلل** ﴾ أى يرد إضلاله ﴿ **فلن تجد لهم أولياء** ﴾ ينصرونهم ﴿ **من دونه** ﴾ يعنى الله سبحانه ويهدونهم إلى الحق الذى أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة ، وقوله: ﴿ **فهو المهتدى** ﴾ حملا على لفظ من ، وقوله : ﴿ **فلن تجد لهم** ﴾ حملا على المعنى ، والخطاب فى قوله : ﴿ **فلن تجد** ﴾ إما للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم** ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول: أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، من قول العرب: قد مر القوم على وجوههم : إذا أسرعوا . الثانى : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾ [القمر : ٤٨] ، ولما صح فى السنة كما سيأتى ، ومحل ﴿ **على وجوههم** ﴾ النصب على الحال من ضمير المفعول . و﴿ **عميا** ﴾ منتصب على الحال ﴿ **وبكما وصما** ﴾ معطوفان عليه . والأبكم: الذى لا ينطق. والأصم: الذى لا يسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة، وأشنع منظر، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، ثم من وراء ذلك ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ أى المكان الذى يأوون إليه، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لا محل لها ﴿ **كلما خبت زدناهم سعيرا**﴾ أى كلما سكن لهبها ، يقال: خبت النار تخبو خبوا : إذا خمدت وسكن لهبها . قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ **زدناهم سعيرا** ﴾: تسعرا ، وهو التلهب . وقد قيل : إن فى خبو النار تخفيفا لعذاب أهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿ لايخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : ١٦٢] ؟ وأجيب

---

(١) الكشاف ٢ / ٦٩٤ .

بأن المراد بعدم التخفيف : أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر . وقيل : إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها .

﴿ **ذلك** ﴾ أى العذاب ﴿ **جزاؤهم** ﴾ الذى أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ، والباء فى قوله: ﴿ **بأنهم كفروا بآياتنا** ﴾ للسببية ، أى بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ، ولا تفكروا فى الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ **جزاؤهم** ﴾ و ﴿ **بأنهم كفروا** ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون ﴿ **جزاؤهم** ﴾ مبتدأ ثانياً ، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتدأ الأول ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا** ﴾ الهمزة للإنكار ، وقد تقدم تفسير الآية فى هذه السورة، و ﴿ **خلقا** ﴾ فى قوله : ﴿ **أإنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ مصدر من غير لفظه أو حال، أى مخلوقين . فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود . فقال : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ أى من هو قادر على خلق هذا ، فهو على إعادة ماهو دون منه أقدر . وقيل : المراد : أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم ، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة ، وعلى هذا القول هو على حقيقته ، وجملة : ﴿**وجعل لهم أجلا لا ريب فيه** ﴾ عطف على ﴿ **أو لم يروا** ﴾. والمعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن كما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء ﴾ [النازعات : ٢٧] . ﴿ **وجعل لهم أجلا لا ريب فيه** ﴾ وهو الموت أو القيامة ، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف . وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿ **فأبى الظالمون إلا كفورا** ﴾ أى أبى المشركون إلا جحودا ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد .

ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون فى أراضيهم لتتسع معايشهم ، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون ، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى** ﴾ : ﴿ **أنتم** ﴾ مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده ، أى لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو ، وخزائن رحمته سبحانه : هى خزائن الأرزاق . قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلاً ، وهو خشية الإنفاق ، أى خشية أن ينفقوا فيفتقروا ، وفى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم، وإيراد الكلام فى صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح. قال أهل اللغة: أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى : قل ماله ، فيكون المعنى : لأمسكتم خشية قل المال ﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ أى بخيلا مضيقا عليه . يقال : قتر على عياله يقتر ويقتر قترا وقتورا : ضيق عليهم فى النفقة ، ويجوز أن يراد : وكان الإنسان قتوراً ، أى قليل المال ، والظاهر . أن المراد : المبالغة فى وصفه بالشح ، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم . بل بعضهم كثير المال ، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنسانى قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده . وقد اختلف فى

هذه الآية على قولين : أحدهما : أنها نزلت فى المشركين خاصة ، وبه قال الحسن . والثانى : أنها عامة وهو قول الجمهور ، حكاه الماوردى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال: « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم »(١) . وأخرج أبو داود، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبانا ، وصنف على وجوههم » ثم ذكر نحو حديث أنس (٢) . وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ قال: يعنى : أنهم وقودها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه فى قوله: ﴿ **كلما خبت** ﴾ قال: سكنت. وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية قال: كلما أحرقهم سعرتهم حطبا، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شىء صارت جمرا تتوهج فذلك خبوها، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **خزائن رحمة ربى** ﴾ قال : الرزق . وأخرج أيضا عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ قال : إذا ما أطعمتم أحداً شيئاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خشية الإنفاق** ﴾ قال : الفقر ﴿**وكان الإنسان قتورا** ﴾ قال : بخيلا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿**خشية الإنفاق** ﴾ قال : خشية الفاقة ﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ قال: بخيلا ممسكا .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)** ﴾ .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٦٠) وفى الرقاق (٦٥٢٣) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٦/ ٥٤) وابن جرير ١٨/ ٩ .

(٢) أبو داود الطيالسى (٢٥٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١٤٢) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ١٨/ ٩ والبيهقى فى الشعب (٣٥٣) من طريق على بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف وليس بالقوى .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات** ﴾ أى علامات دالة على نبوته . قيل : ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التى اقترحها كفار قريش ، بل أقوى منها ، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة فى استئصالهم إن لم يؤمنوا بها . قال أكثر المفسرين : الآيات التسع : هى الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات . وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل. وقال محمد بن كعب القرظى : هى الخمس التى فى الأعراف ، والبحر ، والعصا ، والحجر ، والطمس على أموالهم . وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى ، وسيأتى حديث صفوان بن عسال فى تعداد هذه الآيات التسع .

﴿ **فاسأل بنى إسرائيل** ﴾ قرأ ابن عباس وابن نهيك : « فسأل » على الخبر ، أى سأل موسى فرعون أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وقرأ الآخرون: ﴿ **فاسأل**﴾ على الأمر ، أى سلهم يا محمد حين ﴿ **جاءهم** ﴾ موسى ، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان ، لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى . والمسؤولون : مؤمنو بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿**فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا**﴾ الفاء هى الفصيحة ، أى فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون . المسحور : الذى سحر فخولط عقله . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر ، فوضع المفعول موضع الفاعل ، فـ ﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء** ﴾ يعنى : الآيات التى أظهرها ، وأنزل بمعنى : أوجد ﴿ **إلا رب السموات والأرض بصائر** ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ، وانتصاب ﴿ **بصائر** ﴾ على الحال . قرأ الكسائى بضم التاء من : «علمت» على أنها لموسى ، وروى ذلك عن على ، وقرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون. ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك ، وإنما علمه موسى. ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالما بذلك كما قال تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**﴾ [النمل: ١٤]. قال أبو عبيد: المأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى ،لأن موسى لا يقول : علمت أنا وهو الداعى، وروى نحو هذا عن الزجاج ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين ، والثبور : الهلاك والخسران . قال الكميت :

ورأت قضاعة فى الأيا ... من رأى مثبور وثابر

أى مخسور وخاسر . وقيل : المثبور : الملعون ، ومنه قول الشاعر :

يا قومنا لا تروموا حربنا [1] سفهاً ... إن السفاه وإن البغى مثبور

أى ملعون ، وقيل : المثبور : ناقص العقل. وقيل : هو الممنوع من الخير ، يقال: ما ثبرك عن كذا : ما منعك منه ، حكاه أهل اللغة . وقيل : المسحور .

(١) فى المخطوطة: « حزينا »، وفى القرطبى: « حربنا » وهو الموافق للمعنى. والشاعر هو: أبان بن تغلب.

﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض** ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج بنى إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعنى : أرض مصر بإبعادهم عنها . وقيل : أراد أن يقتلهم . وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وقد تقدم قريبا معنى الاستفزاز ﴿ **فأغرقناه ومن معه جميعا** ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحدا ﴿ **وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾ أى من بعد إغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التى أراد أن يستفزهم منها ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ أى الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرة الآخرة ، أوالساعة الآخرة ﴿**جئنا بكم لفيفا** ﴾ قال الجوهرى : اللفيف : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال : جاء القوم بلفهم ولفيفهم ، أى بأخلاطهم ، فالمراد هنا : جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر . قال الأصمعى : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجمع .

﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن ، ومعنى ﴿ **بالحق أنزلناه** ﴾ : أوحيناه متلبسا بالحق . ومعنى ﴿ **وبالحق نزل** ﴾ : أنه نزل وفيه الحق . وقيل : الباقى ، وبالحق الأول بمعنى : مع ، أى مع الحق أنزلناه كقولهم ركب الأمير بسيفه ، أى مع سيفه ، و ﴿ **بالحق نزل** ﴾ أى بمحمد ، كما تقول : نزلت بزيد . وقال أبو على الفارسى : الباء فى الموضعين بمعنى : مع . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو: ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً ،وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين، والتقديم فى الموضعين للتخصص ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ أى مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيرا مخوفا لمن عصى بالنار .

﴿ **وقرآنا فرقناه** ﴾ انتصاب ﴿ **قرآنا** ﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده . قرأ على وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبى : « فرقناه » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملة واحدة . وقرأ الجمهور: ﴿ **فرقناه** ﴾ بالتخفيف ، أى بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل . وقال الزجاج : فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيد : التخفيف أعجب إلى ، لأن تفسيره بيناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً . ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال : فرقت مخففاً بين الكلام ، وفرقت مشددا بين الأجسام ، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله : فرقناه ، فقال : ﴿ **لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ أى على تطاول فى المدة شيئا بعد شىء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة . ومعناه على القراءة الثانية. ﴿ **على مكث** ﴾ أى على ترسل وتمهل فى التلاوة ، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ . وقد اتفق القراء على ضم الميم فى : ﴿ **مكث** ﴾ إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعنى : أنزلناه منجماً مفرقا لما فى ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا .

﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا** ﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لاتؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك ولا ينقصه . وفى هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ أى أن العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام : ﴿ **إذا يتلى عليهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **يخرون للأذقان سجدا** ﴾ أى يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه. وإنما قيد الخرور ، وهو السقوط ، بكونه للأذقان ، أى عليها ؛ لأن الذقن ، وهو مجتمع اللحيين أول مايحاذى الأرض . قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود ، فأول مايحاذى الأرض به من وجهه الذقن . وقيل : المراد : تعفير اللحية فى التراب، فإن ذلك غاية الخضوع ، وإيثار اللام فى للأذقان على « على » للدلالة على الاختصاص ، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور ، أو خصوا الخرور بأذقانهم . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **من قبله** ﴾ راجع إلى النبى ﷺ ، والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ . وحاصلها : أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لاعلم عندهم ولامعرفة بكتب الله ولا بأنبيائه ، فلا تبال بذلك ، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على أذقانهم سجدا لله .

﴿ **ويقولون سبحان ربنا** ﴾ أى يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب ، أوتنزيها له عن خلف وعده ﴿ **إن كان وعد ربنا لمفعولا** ﴾ « إن » هذه هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة . ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال: ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون**﴾ وكرّر ذكر الخرور للأذقان ؛ لاختلاف السبب ، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه . والثانى: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال : ﴿**ويزيدهم** ﴾ أى سماع القرآن ، أو القرآن بسماعهم له ﴿**خشوعا** ﴾ أى لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **تسع آيات** ﴾ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : يده ، وعصاه ، ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل، والضفادع، والدم . وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن قانع ، والحاكم وصححه، وأبو نعيم والبيهقى وابن مردويه عن صفوان بن عسال ؛ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبى نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله : ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ فقال: « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ،ولا تسرفوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله،

ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة ـ أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا فى السبت » ، فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى الله ، قال : « فما يمنعكما أن تسلما ؟ » قالا: إن داود دعا الله أن يزاد فى ذريته نبى، وإنا نخاف إن أسلمنا أن يقتلنا اليهود (١) .

وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله : ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ قال : مخالفا ، وقال : الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس مثبوراً قال : ملعوناً . وأخرج الشيرازى فى الألقاب وابن مردويه عنه قال : قليل العقل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ﴿**لفيفا**﴾ قال : جميعا . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنه قرأ :« وقرآنا فرقناه » مثقلاً قال : نزل القرآن إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر من رمضان جملة واحدة ، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ، ففرقه الله فى عشرين سنة (٢) . وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **فرقناه** ﴾ قال : فصلناه على مكث بأمد ﴿ **يخرون للأذقان** ﴾ يقول: للوجوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **إذا يتلى عليهم** ﴾ قال : كتابهم .

﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)** ﴾ .

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ ومعناه : أنهما مستويان فى جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ، ولهذا قال : ﴿ **أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ التنوين فى « أيا » عوض عن المضاف إليه، و« ما » مزيدة لتوكيد الإبهام فى: « أيا » والضمير فى « له » راجع إلى المسمى ، وكان أصل الكلام : أيا ما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة ، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه كلها حسن

---

(١) أبو داود الطيالسى (١١٦٤) وابن أبى شيبة (١٨٣٩٢) وأحمد ٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ والترمذى فى الاستئذان (٢٧٣٣) وفى التفسير (٣١٤٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١١١ وابن ماجة فى الأدب (٣٧٠٥) مختصرا وابن جرير ١٥/ ١١٥ والطبرانى (٧٣٩٦) وصححه الحاكم ١/ ٩ وقال : « لم نعرف له علة » ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ٥/ ٩٧ ، ٩٨ والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٢٦٨ . وقال ابن كثير ٤/ ٣٥٧ . « هو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون . والله أعلم » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٩٢) وابن جرير ١٥/ ١١٩ وصححه الحاكم ٢/ ٢٢٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣١ ، ١٣٢ .

هذان الاسمان ، ومعنى حسن الأسماء : استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ، ذكر معنى هذا النيسابورى وتبعه أبوالسعود . قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها . ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال: ﴿**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها**﴾ أى بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، يقال: خفت صوته خفوتا : إذا انقطع كلامه وضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا ذبل، وخافت الرجل بقراءته : إذا لم يرفع بها صوته. وقيل: معناه : لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، والأول أولى ﴿ **وابتغ بين ذلك** ﴾ أى الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين ﴿**سبيلا** ﴾ أى طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها، وعلى التفسير الثانى يكون معنى ذلك : النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والأمر بجعل البعض منها مجهورا به ، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار . وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ولما أمر ألا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ كما تقوله اليهود والنصارى ، ومن قال من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيراً ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ أى مشارك له فى ملكه وربوبيته ، كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ أى لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولى والنصير . قال الزجاج : أى لم يحتج أن ينتصر بغيره ، وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم ، لكون الولد مجبنة ومبخلة ، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب ، لأنه متولد من جزء من أجزائه ، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام ، والشركة فى الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له ، فضلا عن نظام ما هو عليه ، وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين ، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤدية إلى الفساد : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . والمحتاج إلى ولى يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنى بنفسه ﴿ **وكبره تكبيرا** ﴾ أى عظمه تعظيماً ، وصفه بأنه أعظم من كل شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال فى دعائه : « يا الله، يا رحمن » ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا

أن ندعو إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ الآية [١].

وأخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن ، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن ، فنزلت الآية ، وهو مرسل . وأخرج ابن جرير عن مكحول ، أن النبى ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول فى سجوده :« يا رحمن ، يارحيم »، فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبى كبشة يدعو الليلة الرحمن الذى باليمن ، وكان رجل باليمن يقال له : رحمن ، فنزلت [٢] . وأخرج البيهقى فى الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا** ﴾ إلى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « هو أمان من السرق » ، وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه ، فدخل عليه سارق فجمع ما فى البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً ، فوضع الكارة ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فضحك صاحب الدار ثم قال : إنى حصنت بيتى [٣] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ الآية. قال : نزلت ورسول الله ﷺ ستوار ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبيه : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ أى بقراءتك ، فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ يقول: بين الجهر والمخافتة [٤] . وأخرج ابن مردويه عنه قال :كان نبى الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى ، فأنزل الله ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة عنه أيضا نحوه . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا قال : كان مسيلمة الكذاب قد سمى الرحمن ، فكان النبى إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون : يذكر إله اليمامة ، فأنزل الله ﴿**ولا تجهر بصلاتك** ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض ، وكان عمر إذا قرأ جهر ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أنا أناجى ربى ، وقد عرف حاجتى ، وقيل لعمر : لم تصنع

(١، ٢) ابن جرير ١٥/ ١٢١ .

(٣) البيهقى فى الدلائل ٧/ ١٢١ . ونهشل بن سعيد بن ورداد ، متروك وكذبه إسحاق بن راهويه . والضحاك ابن مزاحم الهلالى صدوق كثير الإرسال . وقال النسائى : « الضحاك لم يسمع من ابن عباس . والحديث إسناده ضعيف » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٧٢٢) وفى التوحيد (٧٤٩٠) ومسلم فى الصلاة (٤٤٦ / ١٤٥) والترمذى فى التفسير (٣١٤٥ ، ٣١٤٦) والنسائى فى التفسير (٣٢٠) .

هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزل : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ قيل لأبى بكر : ارفع شيئا ، وقيل لعمر : اخفض شيئا [١] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ فى الدعاء [٢] . وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت: نزلت فى التشهد [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأول [٤] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولدا ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وقل الحمد لله** ﴾ إلى آخرها [٥] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ قال : لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد . وأخرج أحمد والطبرانى عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « آية العزّ : ﴿**الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ » الآية كلها [٦] . وأخرج أبو يعلى وابن السنى عن أبى هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده فى يدى ، فأتى على رجل رث الهيئة فقال : « أى فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضر ، قال : « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ توكلت على الحى الذى لا يموت، الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا» إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال: « ممّ » : قال : لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى . وفى لفظ : أن النبى ﷺ علم ذلك أبا هريرة . قال ابن كثير : وإسناده ضعيف وفى متنه نكارة [٧] . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله

---

(١) ابن جرير ١٥/ ١٢٤ .

(٢) ابن أبى شيبة (٩٨٠٩) والبخارى فى التفسير (٤٧٢٣) وفى الدعوات (٦٣٢٧) وفى التوحيد (٧٥٢٦) ومسلم فى الصلاة (٤٤٧/ ١٤٦) والنسائى فى التفسير (٣٢١) .

(٣) ابن جرير ١٥/ ١٢٤وصححه الحاكم ١/ ٢٣٠ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٥/ ١٢٢ ونسبه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧١) لابن منيع . وقال البوصيرى : « رواه أحمد ابن منيع بإسناد حسن » .

(٥) ابن جرير ١٥/ ١٢٦ .

(٦) أحمد ٣/ ٤٣٩ والطبرانى ٢٠/ ١٩٢ (٤٢٩ ، ٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٥ : « رواه أحمد من طريقين فى أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف ، وفى الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه وكذلك الطبرانى». قلت : « وفيهما زبان بن فائد وهو ضعيف » .

(٧) أبو يعلى (٦٦٧١) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٤٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٥ : « فيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » وضعفه البوصيرى أيضا فى المطالب العالية لابن حجر (٢٤١١) وابن كثير ٤/ ٣٦٢ .

هذه الآية : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ إلى آخرها الصغير من أهله والكبير [١] . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح سبع مرات : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا** ﴾ إلى آخر السورة [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره[٣]. وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(١) ابن جرير ١٥ / ١٢٦ .
(٢) عبد الرزاق (٧٩٧٦) .
(٣) ابن أبى شيبة (١٠٣٢٨) .

obeikandl.com